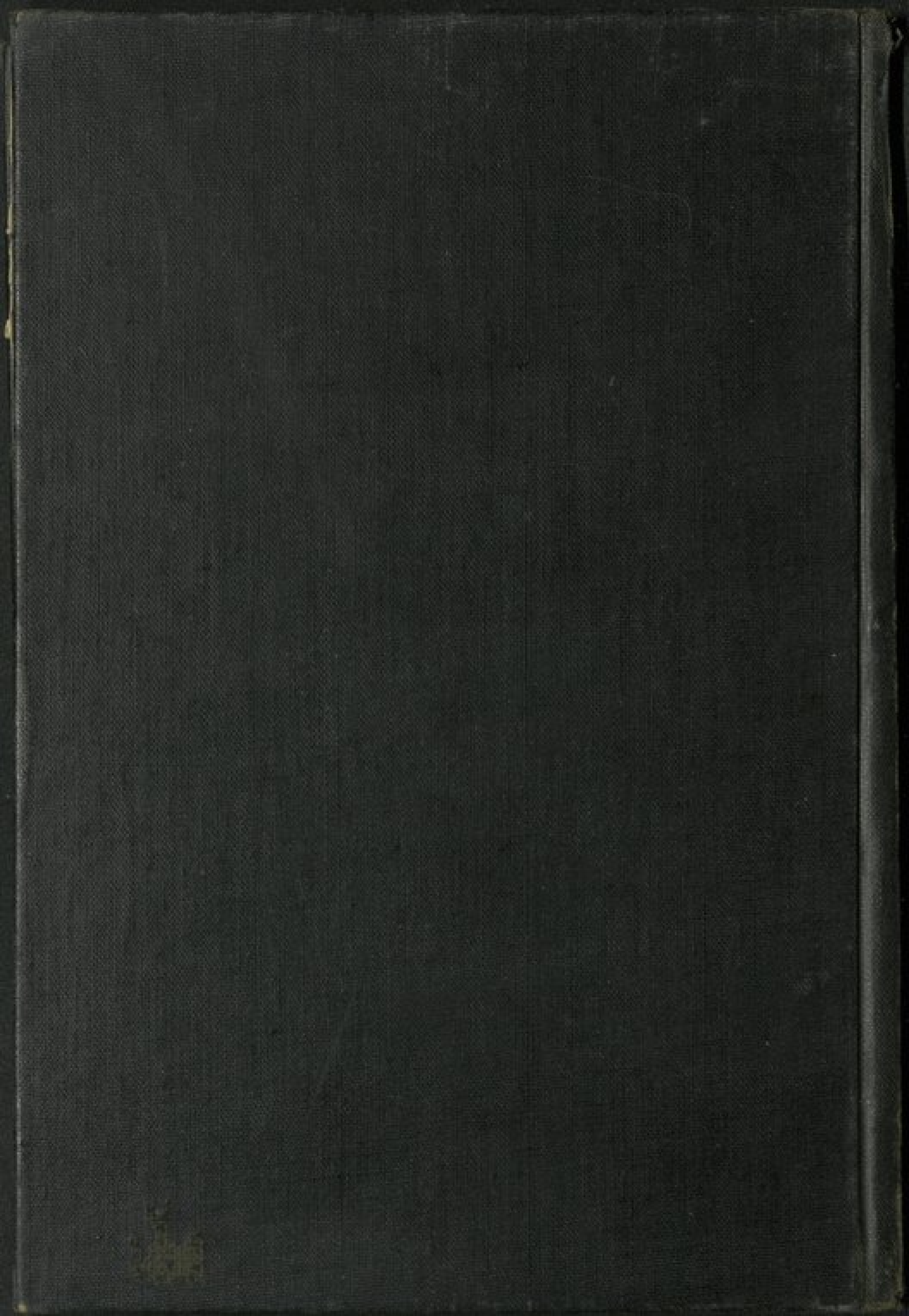
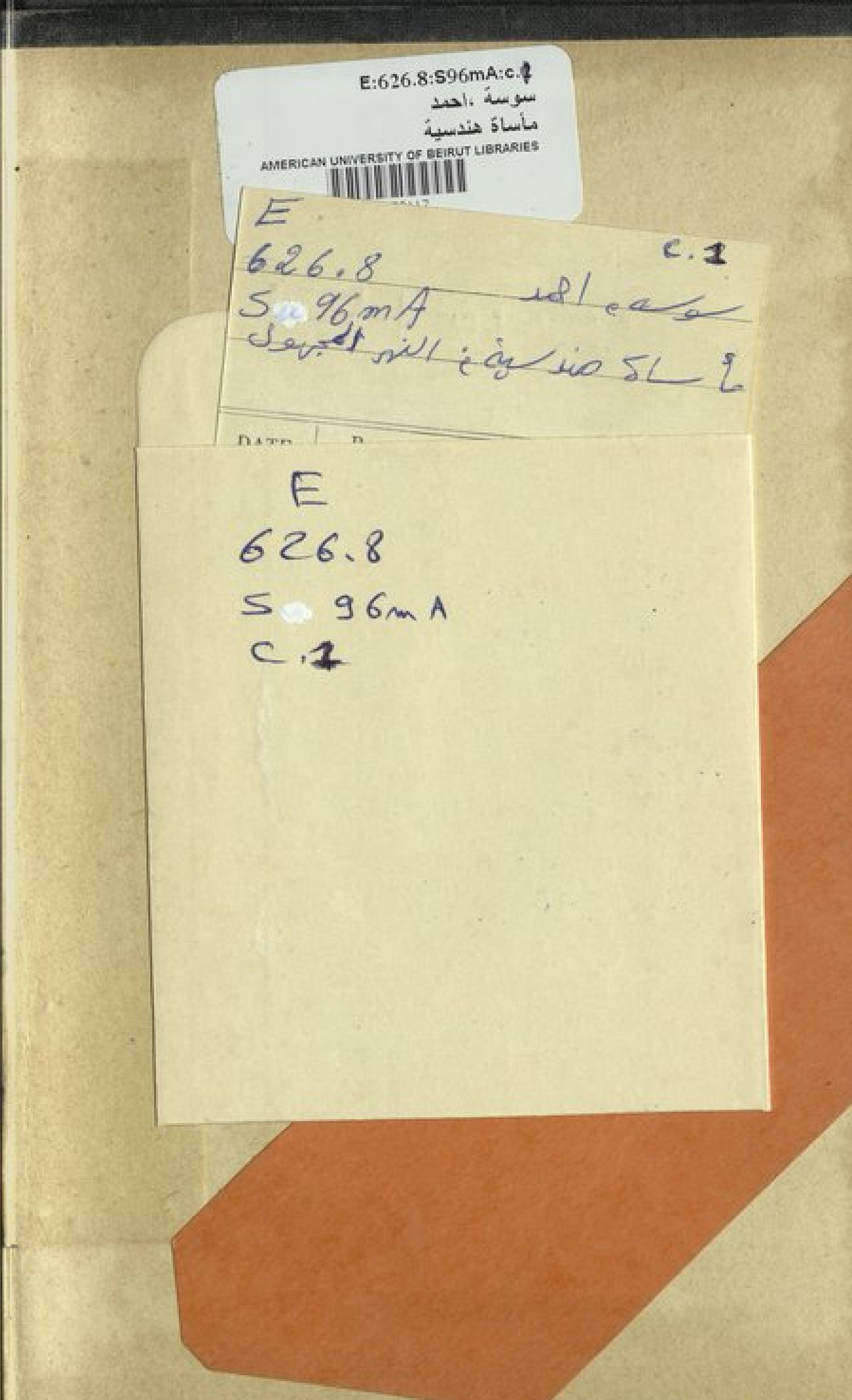
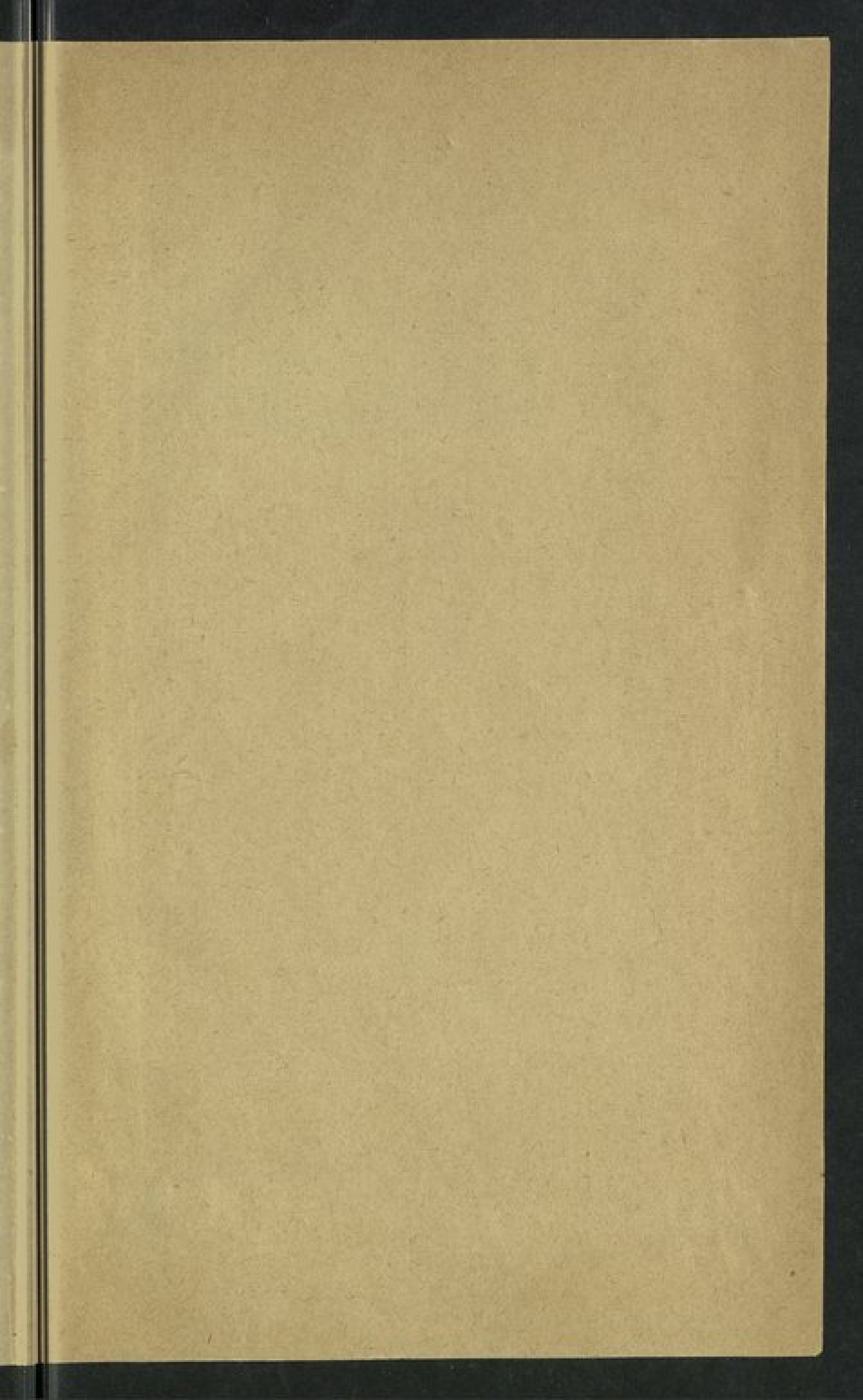
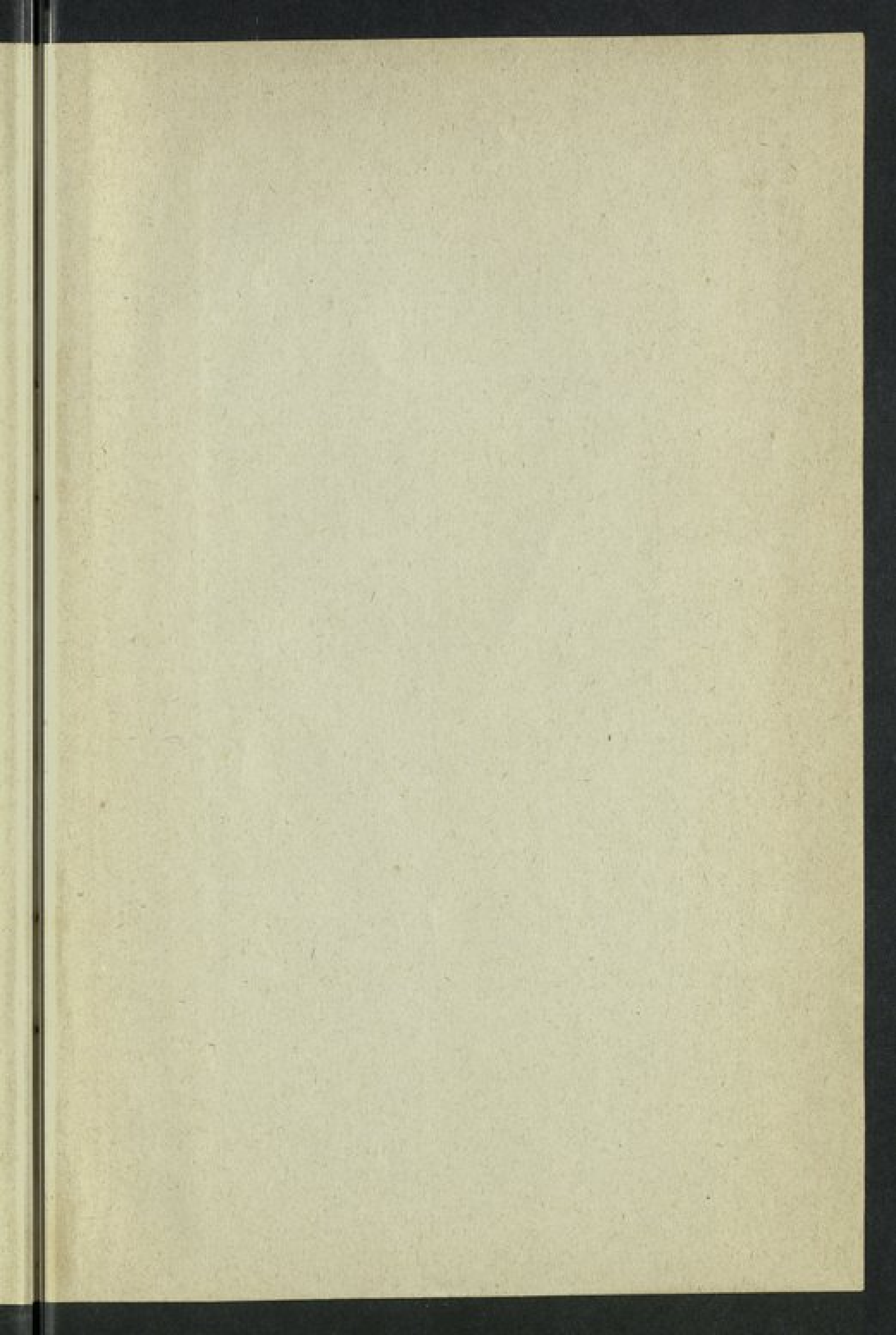




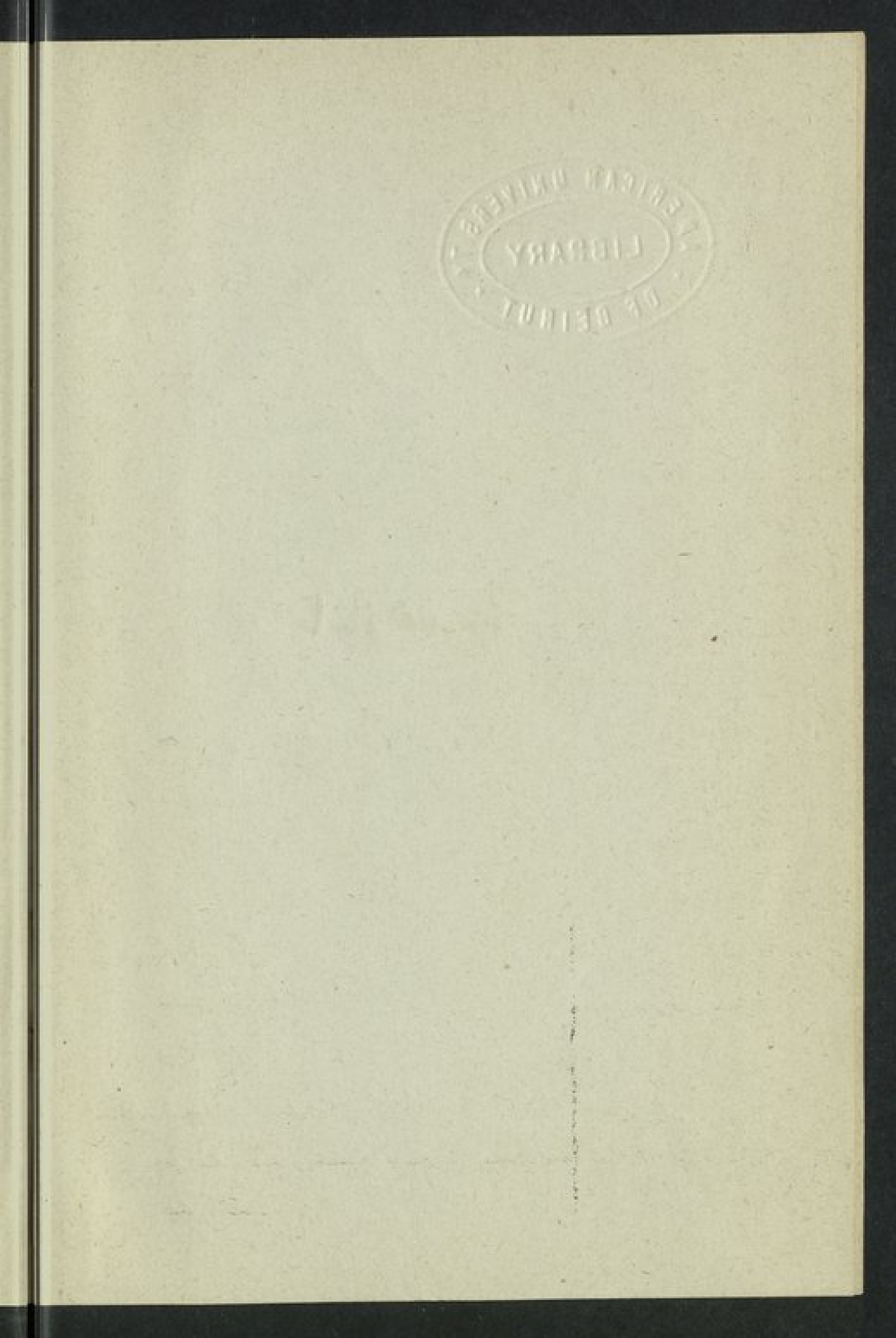


هدية المؤلف الى مجلة الأديب
الغراء مع اخلص التمنيات
[illegible]
٦/٨/ ٤٧





مأساة هندية



آثار المؤلف المطبوعة في الري

المطبوعات العربية

١ ـ « ري أراضي الخرج في نجد » تقرير فني حول مشاريع الري في نجد نشر في مكة المكرمة سنة ١٩٣٩ .

٢ ـ « الري في العراق » طبع في مطبعة التفيض الأهلية ببغداد سنة ١٩٤٢ .

٣ ـ « المصادر عن ري العراق » — وهو كتاب جمع فيه المؤلف المصادر التي تبحث في شؤون الري في العراق ولخص محتوياتها وعلق عليها . طبع بمطبعة الحكومة ببغداد سنة ١٩٤٢ .

٤ ـ « بين عدن والأردن » ترجمة كتاب للسير وليم ويلكوكس طبع في مطبعة الحكومة ببغداد سنة ١٩٤٣ .

٥ ـ « وادي الفرات ومشروع الحبانية » . الجزء الأول ، ومعه ١٨ خارطة و ١٥ تصوير ، طبع في مطبعة الحكومة ببغداد سنة ١٩٤٤.

٦ ـ « وادي الفرات ومشروع سدة الهندية » ، الجزء الثاني ، ومعه ٢٢ خارطة و ٢٦ تصوير ، طبع في مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٩٤٥ .

٧ ـ « في ري العراق » ، الجزء الأول ، ومعه أطلس يضم ١٦ لوحة خرائط ، طبع في مطبعة الحكومة ببغداد سنة ١٩٤٥ (الجزء الثاني قيد الاعداد) .

٨ ـ « تطور الري في العراق » ، ومعه ٢٨ تصوير وخارطة ، طبع في مطبعة المعارف سنة ١٩٤٦ .

٩ ـ « مشروعات الري الكبرى ـ خزان هور الشويجة » طبع في مطبعة المعارف سنة ١٩٤٧ .

١٠ـ « مشروعات الري الكبرى ـ خزان بحيرة الشارع » طبع في مطبة المعارف سنة ١٩٤٧ .

١١ـ « مشروعات الري الكبرى ـ إحياء النهر الجعفري » (معد للطبع).

١٢ـ « ري سامراء في عهد الخلافة العباسية » (معد للطبع) .

١٣ـ « النهروان ـ نشوؤه تطوراته امكانياته » (معد للطبع) .

١٤ـ « معجم المصطلحات الهندسية » وهو معجم للمصطلحات الهندسية عنى المؤلف بجمعها وترجمتها من الانكليزية الى العربية والتعليق عليها (معد للطبع) .

المطبوعات الانكليزية

1. «Handbook of Instructions for Discharge Observers in Iraq,» Compiled by the author and Mr. F. S. Bloomfield. Printed at the Government Press, Baghdad 1932.

2. «Iraqi Irrigation Handbook», Part I, Iraqi State Railway press, Baghdad, 1944 (With 16 Plates in Portfolio).

3. «Iraqi Irrigation Handbook, » Part II (in Preparation).

4. «Irrigation in Iraq — its History and Development.» Facts and prospects in Iraq Series (English Edition). The Commercial Press, Jerusalem, 1945.

5. «The Hindiyah Barrage—its History, Design and Function» (With 17 Maps and 22 illustrations). The Government press, Baghdad. 1945.

الدكتور احمد سوسة

مأساة هندسية

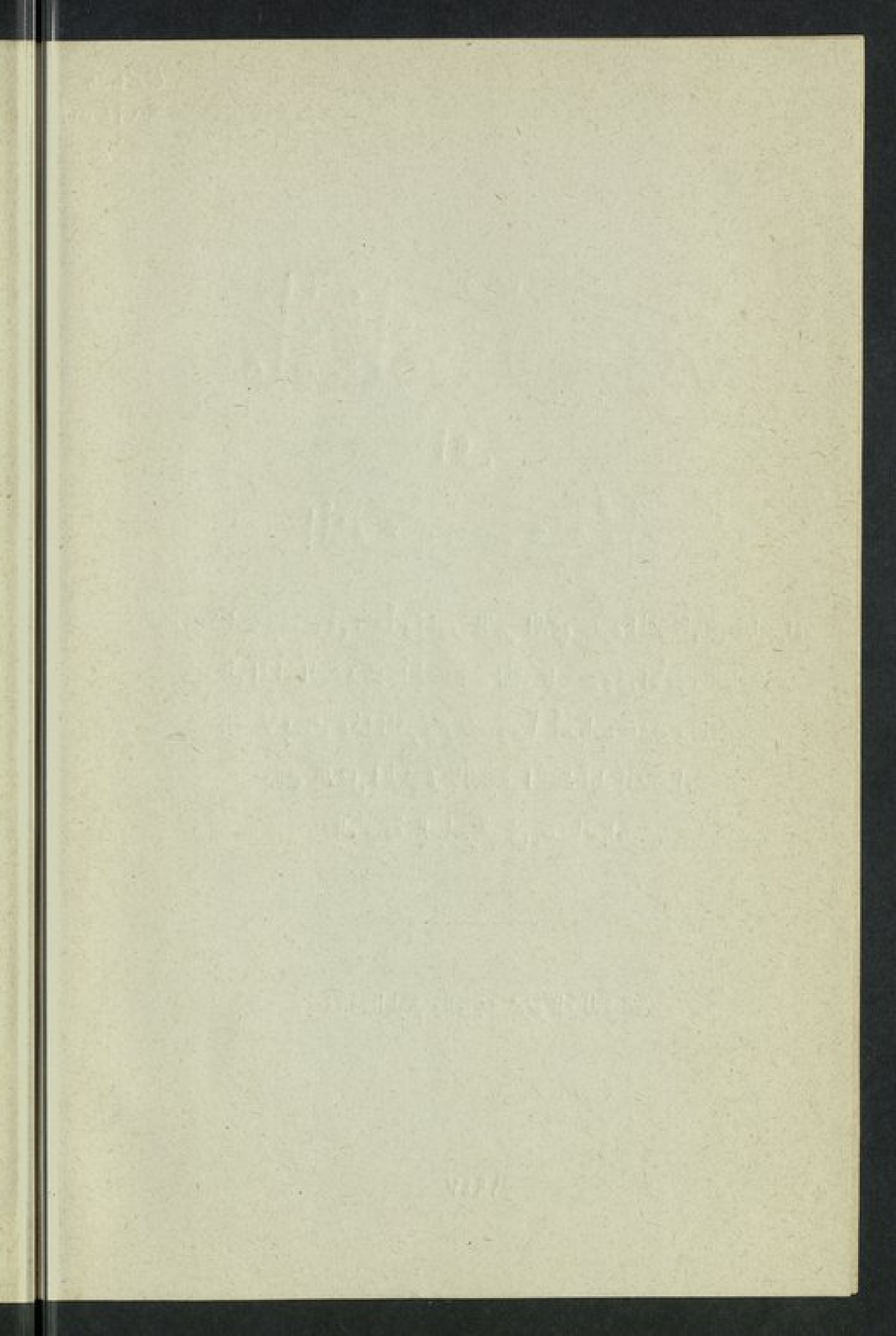
او

النهر المجهول

وهو كتاب يبحث في منشأ وتطور النهر الذي حفره المتوكل في سامراء لايصال المياه الى مدينته الجديدة ـ المتوكلية ـ وفي الأمور الغامضة التي لابست هذا المشروع خصوصاً أسباب فشله ونتائج ذلك الفشل الخطيرة بالنسبة الى خطط إنشاء العاصمة العباسية في سامراء

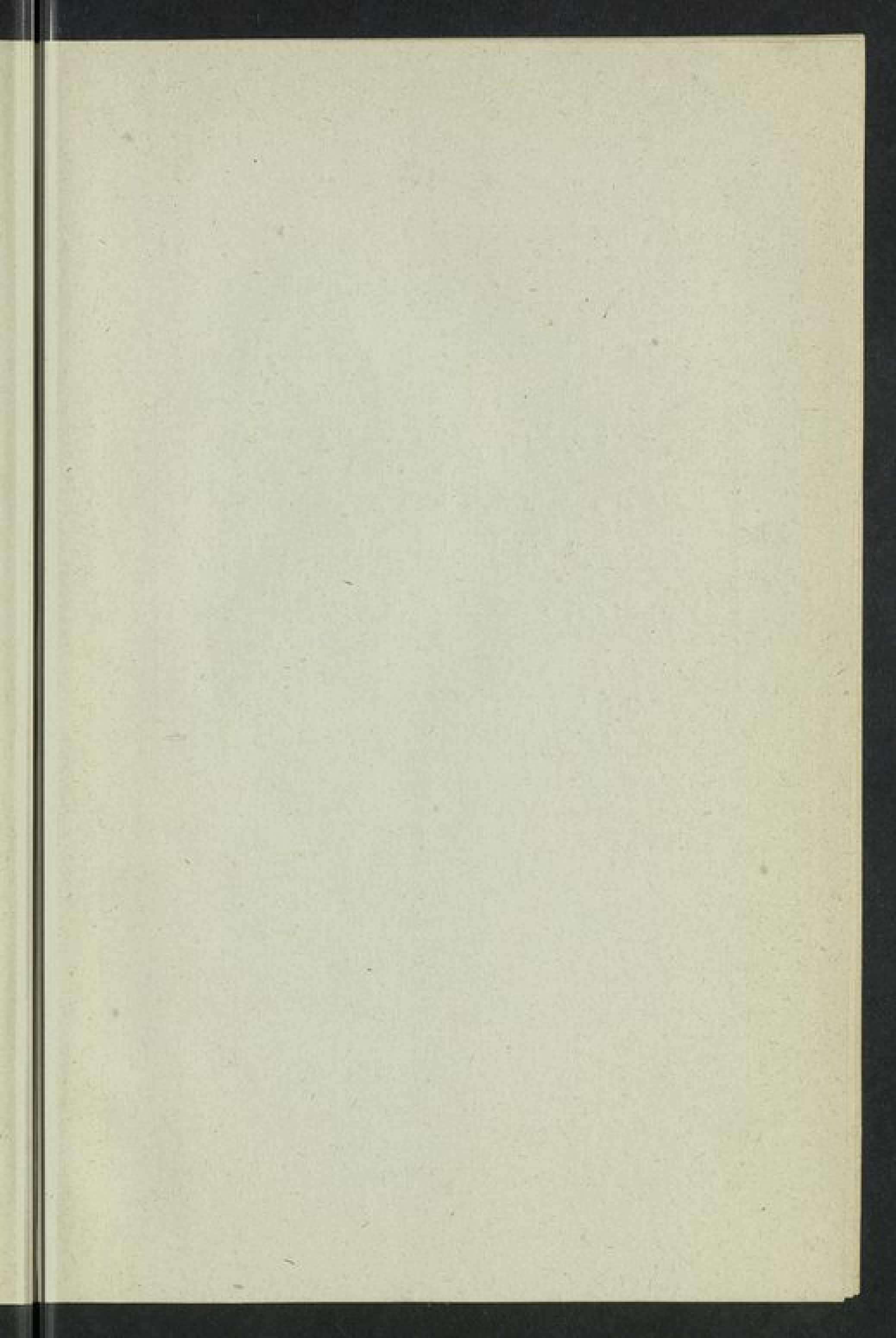
مطبعة المعارف ـ بغداد

١٩٤٧



إذا كان للعالم أن يستغني عن طائفة من الطوائف فانه لا يمكنه أن يستغني عن طائفة المهندسين ، إذ هم عماد حياته الحقيقية . فاذا بقي هذا العالم فانه باق بفضل مجهود المهندسين وإذا قدر له أن يفنى فسيكون فناؤه وتدميره على يد المهندسين .

عزيز أباظة



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ سنوات وأنا في حيرة من أمر النهر الذي حفره المتوكل لايصال المياه الى مدينته الجديدة ـ المتوكلية أو الجعفرية ـ والى المنطقة المجاورة لها ، ذلك النهر العظيم الذي ذكر اليعقوبي أن المتوكل أنفق عليه ما يقرب من مليون الدينار وجاء في الطبري أن اثني عشر ألف شخص اشتغلوا في حفره ، « ولكنه لم يتم أمره ولم يجر الماء فيه إلا جرياً ضعيفاً » ، فكلما حاولت أن أصل إلى ما يدلني على آثار هذا النهر التاريخي والموقع الذي كان يسحب منه الماء كلما وجدت نفسي تائهاً في بحر الظنون والحدس ، لاسيما وانني لم أجد بين الأثريين الأخصائيين من يرشدني الى رأي يقنعني من الناحية الفنية .

أين قد يكون هذا النهر ، وكيف أوصلت المياه الى المتوكلية ، وماهي أسباب فشل هذا النهر ، هذه هي الأسئلة التي كانت تستحثني دوماً على التنقيب والتحري والتتبع للتوصل الى جواب يشفي غليلي ويرفع الستار عن مكنونات هذا المشروع ، ولاسيما ما يتعلق بأسباب فشله . ولكن هناك عقبة كانت تغلق أمامي الطريق المؤدية إلى اكتشاف الحلقة المجهولة في هذا الموضوع ، وهذه العقبة هي أن العلماء والمحققين والأثريين حتى المهندسين

الفنيين ، كل هؤلاء قد أجمعوا على أن ليس في هذه المنطقة غير النهروان ، وأن كل الأنهر والفروع الواقعة هناك تابعة الى النهروان ، ولابد أن يكون النهر الذي حفره المتوكل فرعاً من فروع النهروان أو أنه النهروان نفسه . ولما كنت واثقاً كل الوثوق من أن مناسيب أراضي المتوكلية مرتفعة بالقياس الى مستوى مجرى النهروان ، الأمر الذي لا يساعد على تموين المتوكلية بمياه السيح من النهروان أو من أي فرع من فروع النهروان ، كان علي أن أتحرى عن نهر المتوكل في مكان ما من شمال مدينة الجعفرية على أن يكون هذا المكان بعيداً الى الشمال بحيث يمكن سحب المياه من أعالي نهر دجلة وإيصالها الى منطقة المتوكلية سيحاً ، فان انفاق مليون دينار على حفر النهر وانشغال اثني عشر الف عامل في حفره لا يترك أي شك في أن النهر فتح من مكان بعيد ولم يصل الى المتوكلية إلا بعد مسافة طويلة يسير فيها بين دجلة وأراضي المتوكلية .

وكم كانت دهشتي حين قادتني المصادفة أثناء قيامي ببعض التحريات عن مشاريع الري القديمة في سامراء فاكتشفت أن النهر المعروف باسم نهر نايفة القديم الواقع في تلك المنطقة والذي يتفرع من نهر دجلة في نقطة تقع شمال مدينة المتوكلية حوالي ستين كيلومتراً ، ذلك النهر الذي أجمع كل من كتب عن هذه المنطقة من أثريين ومهندسين ومؤرخين انه صدر من صدور النهروان العليا ، ما هو إلا جدول المتوكل نفسه دون أي شك . ولا مجال للشك أيضاً بأن هذا النهر مستقل وليست له أية علاقة بالنهروان

إلا بشيء واحد وهو أن ذنائبه تعبر من فوق مجرى القاطول الأعلى (صدر النهروان الأعلى).

والآن بعد ان وثقنا كل الوثوق من أن ذلك هو النهر الذي حفره المتوكل لايصال المياه الى المنطقة التي انشأ فيها مدينته الجديدة ـ المتوكلية ـ فقد يكون من الأصح أن نطلق عليه اسم «نهر المتوكلية» أو «النهر الجعفري»، لاسيما وأن بعض المؤرخين قد أشاروا اليه بالتسمية الأخيرة.

ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن فشل هذا المشروع قد أدى الى نتائج خطيرة بالنسبة الى مركز الامبراطورية العباسية في ذلك العهد، ولعله كان من أقوى الأسباب التي حملت المنتصر على هجران مدينة المتوكلية بعد مقتل المتوكل ورجوعه الى سامراء، الأمر الذي أدى أخيراً الى نقل العاصمة الى بغداد. وقد يكون هناك مجال للافتراض أيضاً بأن لمقتل المتوكل بعض الصلة بقضية فشل المشروع كما سنرى في مجرى البحث عن فشل المشروع وعوامله.

وقد سميت موضوع البحث «مأساة هندسية» لأن فشل هذا المشروع التاريخي الجبار يعد مأساة مؤسفة في تاريخ هندسة الري في العراق في الحقيقة، إذ كان في الامكان أن يحول دون وقوعها لولا تغلب الأنانية الشخصية على الشعور بالواجب تجاه الصالح العام كما سنرى في البحث عن أسباب فشل المشروع وقصته الغريبة في هذا الباب. واننا لنشكر الظروف على أن الوصمة التي خلفها مهندسو القرن الثالث للهجرة

بتناحرهم الشخصي قد محتها أيامنا الحاضرة بتظافر المهندسين العراقيين وتعاونهم على إحياء مشاريع الري في العراق بصورة عامة ، مؤملين أن يكون إحياء النهر الجعفري من ضمن هذه المشاريع لكي يتسنى اعادة خيراته العميمة التي كان يدرها على الأسلاف قبل محاولة المتوكل لاحيائه وفشله بتلك المحاولة . وقد رأيت ان استجمع ما يمكن بذله من جهود في سبيل إحياء هذا المشروع فقمت بمسحه بنفسي واجريت كل ما يقتضيه من تحريات تمهيدية ، وافردت لذلك كتيباً خاصاً بعنوان « إحياء النهر الجعفري » وهو يبحث في امكانيات النهر وتصاميمه وكلفته ، وغاية ما اتمناه ان تسهل الحكومة أمر انجاز هذا المشروع فتعيد إلى هذه المنطقة المقدسة مجدها الغابر وتحيي به عزها القديم .

أما إذا أطلقت على الموضوع من الجهة الثانية تسمية « النهر المجهول » فذلك لأن المشروع بقي مجهولا طيلة القرون الماضية فلم يخض احد من الباحثين أو الأثريين أو المهندسين فيه ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى ندرة اجتماع الاختصاص الفني والتتبع التأريخي معاً لحل عقدة الموضوع من الناحيتين الفنية والتاريخية وكشف ما خفي من أمره بطريقة علمية . هذا وقد يكون من دواعي خمول ذكر النهر ظهور فشل المشروع ، وهو الفشل الذي حال دون تخليد اسم هذا النهر وترديد ذكره ، فظل مجهولا بين الناس .

ولعل أهم ما في بحثنا هذا من الوجهة التأريخية هو اكتشاف مجرى

النهر الجعفري ومنشئاته وتفرعاته وبركة قصر الجعفري التي ينتهي عندها ، ثم الكهريز الذي حفره المتوكل لايصال المياه الى مدينة المتوكلية قبل أن يتم حفر النهر . وقد وضعت خارطة حقيقية تبين مجرى النهر وتفرعاته والمواقع الأثرية والمنشئات التي عليه مع مناسيب القعر على طول المجرى . كما رسمت خارطتين أخريين تبين احداهما حدود المتوكلية وموقع القصر الجعفري وبركته وقد رسمتها على أساس المسح الخاص الذي اجريته هناك ، وتبين الثانية اتجاه الشارع الأعظم بين سور اشناس والمتوكلية مع مناسيبه على طول هذه المسافة . وقد رسمت ايضاً مخططاً يبين تفاصيل العبارة التي كانت تعبّر مياه النهر من فوق مجرى القاطول الكسروي قبل أن يفضي الى المتوكلية ، ومع ان هذا المخطط مستند الى معلومات فنية دقيقة فهو من تصوراتي الخاصة ومبني على اختباراتي الشخصية عن منشئات الري ، معتقداً انه أقرب صورة لوضع العبارة كما انشئت في زمن المتوكل . وبحثت في تفاصيل هذه العبارة وتاريخها في مادة خاصة عنوانها « عبارة النهر الجعفري على القاطول الكسروي » . وقد تتبعت كل آثار الأنهر القديمة والكهاريز في هذه المنطقة جرياً في السيارة وظهور الخيل ومشياً على الأقدام مثبتاً اتجاهاتها ومواقعها على الخرائط المرفقة وهذه هي أول خرائط تبين هذه التفاصيل على شكلها الحقيقي .

ومما يؤسف له انه لا توجد خارطة حقيقية جامعة للمواقع الأثرية في منطقة سامراء ، وما موجود مبعثرهنا وهناك اكثره منقول عن خرائط

أجنبية ومعظمه بعيد عن الواقع لا يمكن ان يعوّل عليه الباحثون أو المحققون . لذلك كان علي ان اقوم بمسح خاص لبعض الأماكن التي قمت بدراستها وقد استغرق ذلك مدة طويلة حتى تسنى لي ان اجمع كل المعلومات المطلوبة ، وقد استعنت بآثار الأنهر القديمة واتجاهاتها ومناسيبها بالاضافة الى الاستعانة بالاخبار التأريخية عند وجودها لاستخلاص النتائج المطلوبة .

ولابد لي قبل ان اختم مقدمتي هذه ان انوّه عن اهتمام دائرة الآثار القديمة في العراق وعنايتها بهذا الموضوع ، واود بهذه المناسبة ان أخص معالي الدكتور السيد ناجي الأصيل مدير الآثار القديمة العام بالشكر على اهتمامه الشخصي في الموضوع وتجشمه متاعب السفر والتجوال في هذا السبيل حيث اوقفته على تفاصيل هذا المشروع التأريخي وعلى نتائج تتبعاتي عن نظام الري القديم في منطقة سامراء ؛ كما اذكر بالحمد والثناء المساعدات العلمية التي اسداها إليّ الأستاذ كوركيس عواد أمين مكتبة الدائرة المذكورة بوضعه تحت تصرفي الأسانيد التاريخية في مختلف اللغات لتسهيل بحث هذا الموضوع . اما المساعدات التي اسداها إليّ السيد حسين عوني معاون مدير الآثار القديمة العام اثناء اقامتي في سامراء لاجراء التحريات هناك فانها مما سهلت عليّ مهمتي وأمنت راحتي وهيأت الوسائل المقتضية لعملي .

بغداد : ٢ تموز ١٩٤٧ — احمد سوسة

المحتويات

الخرائط والرسوم

١ - تمهيد

لايسع المرء وهو يستعرض ماقام به المتوكل من اعمال عمرانيه في سامراء ، الا وينتهي الى ان المتوكل كان اكثر الخلفاء الذين اقاموا في سامراء طموحاً ، من حيث الرغبة في انجاز المشروعات الكبرى في العاصمة الجديدة وعلى الاخص مشروعات الري التي هي عماد كل توسع عمراني . فما كان يكاد ينتهي من مشروع حتى يبدأ بمشروع آخر ، وهكذا فكان طيلة مدة حكمه مجداً في طلب المزيد من هذه الناحية ، مواظباً في السعي على تحقيق فكرته الرامية الى انشاء أجمل واعظم عاصمة في عالم ذاك الوقت مهما كانت الكلفة . لذلك فان مشروع القناة الذي قام به لحمل المياه من دجلة الى سامراء ومشروعاته الاخرى على القاطول جنوب سامراء [١] لم تحقق رغباته المرتسمة في مخيلته ، وهي انشاء مدينة جديدة يخترقها نهر واسع تنطلق منه المياه سيحاً فتروي الحدائق الواسعة والمتنزهات الفسيحة وسواقي الاشجار على طول الشوارع وتمون برك قصوره بالمياه اللازمة ، فيستطيع حينئذ ان يوحّد جهوده ويجمع كل عمرانه في مكان واحد فلا يحتاج بعدئذ

---

(١) بحثت هذه المشاريع بصورة مفصلة في كتاب آخر عنوانه « ري سامراء في عهد الخلافة العباسية » وهو كتاب يبحث في تأريخ سامراء والنهروان والقاطول وقناة المتوكل وكل ما يتعلق بمشاريع الري القديمة في منطقة سامراء في عهد الخلافة العباسية .

ان يقطع المسافة الطويلة الى القاطول لكي يقضي هناك اوقات انسه وطربه[١].

وقد ارتأى المتوكل ان يتجه شمالا ليحقق هناك خططه التي رسمها في مخيلته حيث تساعد مناسيب دجلة المرتفعة على مد النهر المطلوب الى مدينته الجديدة. ونستطيع ان نتصور مبلغ سروره حين اكتشف آثار نهر قديم في تلك المنطقة يتفرع من نهر دجلة من شمال سامراء بحوالي تسعين كيلومتراً وينتهي عند صدر القاطول الكسروي جنوب الدور[٢]، فقرر في الحال اعادة احيائه وانشاء مدينة جديدة في منطقة الماحوزة الكائنة بين أعالي مجرى القاطول الكسروي ونهر دجلة، وذلك بعد ان تحقق من الخبراء ان النهر المذكور يضمن ايصال المياه الى هذا المكان سيحاً. ويحدثنا التاريخ كيف استجمع المتوكل كل نشاطه وهمته لتحقيق انشاء هذه المدينة ونهرها في أقرب وقت ممكن حتى استطاع ان يتمها بمدة اقل من سنتين وسماها باسمه « المتوكلية »، كما يحدثنا التاريخ كيف صارت هذه المدينة نذير شؤم عليه حيث لم يمض بضعة أشهر على انتقاله اليها حتى قتل فيها فهجرت بعد مقتله.

وقد لعب مشروع النهر دوراً خطيراً في هجران المدينة مثل دوره في نشوء فكرة الانتقال اليها، وذلك بسبب فشل هذا المشروع وعجزه عن تأمين

---

(١) تقع منطقة القاطول المذكورة في جنوب سامراء حيث يتفرع هناك صدر النهروان الأسفل من نهر دجلة وهو المجرى المعروف الآن بنهر القائم أو نهر اروف.

(٢) ان القاطول الكسروي المذكور يؤلف الصدر الأعلى للنهروان وهو يتفرع من نهر دجلة من عند مدينة الدور الحالية فيسير بمحاذاة نهر دجلة جنوباً، ثم بعد أن يجتاز مدينة سامراء يلتقي بمجرى القائم الذي يتفرع من دجلة من جنوب سامراء. ويعرف هذا المجرى ايضاً باسم « نهر الرصاصي ».

ايصال المياه اليها في موسم الصيف كما سنرى .

ونستدل مما كتبه بعض المؤرخين ان النهر سمي باسم المتوكل أي « النهر الجعفري » [١] ، ويرجح ان فشل المشروع كان من جملة الاسباب التي لم تشجع على تخليد أسم النهر وترديد ذكره فظل مجهولا بين الناس . ومما يلفت النظر ان البحتري الذي رافق المتوكل طيلة مدة حكمه ووصف الكثير من مشروعاته ومن جملتها مشروع انشاء مدينة المتوكلية نفسها لم يتطرق الى ذكر النهر الجعفري مع انه كان لهذا النهر علاقة مباشرة بالمتوكلية التي وصفها في اشعاره ، ولعله كان متقصداً في تحاشي ذكره للسبب الذي المعنا اليه نفسه .

٢ ـ سامراء عاصمة بني العباس

وقبل ان نبحث عن النهر الجعفري قد يكون من المفيد ان نعرض صورة مجملة لمدينة سامراء القديمة لكي نقف على التطورات التي اعتورت مراحل انشائها ومن جملة ذلك انشاء مدينة المتوكلية التي حفر النهر الجعفري لايصال المياه اليها .

أسست مدينة سامراء العباسية في زمن الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد سنة ٢٢١ هـ . (٨٣٦ م .) ثامن خلفاء بني العباس ليجعلها عاصمة جديدة لملكه العظيم ثم وسعها ابنه الواثق (٢٢٧ـ٢٣٢ هـ . = ٨٤١ـ٨٤٦ م .)

---

(١) راجع كتاب « عيون الانباء في طبقات الاطباء » تأليف ابن أبي صيبعة الجزء الأول ص (٢٠٧) وقد جاء ذكر النهر فيه باسم « النهر الجعفري » .

واوصلها الى اوج عظمتها واقصى اتساعها المتوكل (٢٣٢_٢٤٧هـ. = ٨٤٦_٨٦١ م.)، الا ان المدينة تركت بعد ذلك واعاد المعتمد (٢٥٦_٢٧٩هـ. = ٨٧٠_٨٩٢ م.) مقر الخلافة الى بغداد. ولسامراء منذ بنيت وسكنت خمس وخمسون سنة ملك بها ثمانية خلفاء. ومما ذكره حمد الله المستوفي ان مدينة سامراء انشأها بالاصل سابور الثاني ذو الاكتاف (٣٠٩_٣٧٩ م.)، ولما كان اقليمها طيباً عرفت بـ «سر من رأى» ويقال ان الناس خففوا هذه التسمية فقالوا «سامراء». ويقول اليعقوبي ان اسمها في الكتب المتقدمة «زوراء بني العباس».

وقد بنيت مدينة سامراء الحالية على اطلال مدينة سر من رأى العباسية، وهذه الاخيرة تمتد على طول الضفة اليسرى لنهر دجلة الى ابعاد شاسعة فتصل من جهة الجنوب الى مسافة تسعة كيلومترات تقريباً جنوبي المدينة الحالية وحوالي الخمسة والعشرين كيلومتراً الى الشمال، أي ان مجموع طولها يبلغ زهاء ٣٤ كيلومتراً؛ اما عرضها فيتراوح بين الكيلومترين والاربعة كيلومترات اي بمعدل ثلاثة كيلومترات. وعلى هذا الاساس يمكن تقدير مساحة مدينة سر من رأى بحوالي مائة وعشرة كيلومترات مربعة، اي مايقرب من خمسة واربعين الف دونم (مشارة). ولاشك ان هذه المساحة الهائلة تجعل مدينة سر من رأى في عداد اكبر مدن العالم الحديث، وهذا ماحمل ياقوت على القول بانها «صارت اعظم بلاد الله» والقزويني على الحكم بانه «لم يكن في الارض أحسن ولا اجمل ولا اوسع ملكا منها.»

اما السبب الذي حدا بالمعتصم الى نقل مقر العاصمة من بغداد الى سامراء هو أن وجود الجنود الاتراك المأجورين في بغداد قد خلق له مشاكل أدت به الى التحري عن محل جديد فانشأ بلدة سامراء . ويقول المؤرخون انه لما ذهب المعتصم يتحرى عن مكان ملائم شمالا اختار مكانين وقد بقي مدة فيهما حتى وصل الى السهل الذي تقع عليه مدينة سامراء الحالية فاختاره لعاصمته الجديدة وقرر تشييدها فيه .

٣ – سبب اختيار موضع سامراء دون غيره

أما سبب اختيار موضع سامراء دون غيره فيرجع الى عوامل عدة أهمها عامل الري والمياه . وإذا ما تتبعنا خطوات المعتصم عند ما خرج متحرياً موقعاً ملائماً لعاصمته الجديدة نجد انه اختار عدة مواقع وقد انشأ البناء في بعضها ثم عاد فعدل عنه حتى انتهى الى موضع سامراء فاتخذه مقراً لعرش خلافته وعاصمة امبراطوريته المترامية الأطراف . والذي نراه أن قضية المياه كانت العامل الرئيسي بالنسبة الى هذا التردد ، ولا شك أن الخبراء الذين كانوا برفقة المعتصم هم الذين أشاروا عليه بأن يتخذ موقع سامراء مقراً لعاصمته لأن هذا الموقع يمتاز في الدرجة الأولى بمميزاته الستراتيجية لوقوعه في مكان تحيط به المياه من كل أطرافه فتشكل هذه المياه سوراً دفاعياً يحيط بالمدينة من كل أطرافها . فنهر دجلة يلازمها من جهة الغرب فيسير في حذائها من أقصى حدودها الشمالية الى أقصى حدودها

الجنوبية ، وذلك يؤمن الاتصال بالمدينة نهراً وشحن البضائع التجارية والأموال والمؤون اليها عن طريق النهر سواء أكان ذلك من شمال العراق أو من جنوبه . هذا وفي الوقت نفسه أن الأرض التي تقع فيها مدينة سامراء تؤلف جرفاً يرتفع عن سوية مياه النهر عدة أمتار مما يجعل المدينة في مأمن من خطر الغرق ، ولا يخفى أن خطر الغرق في موسم الفيضان كان مصدر قلق شديد في مدينة بغداد حيث كانت المدينة معرضة الى خطر الغرق من الجهتين الغربية والشرقية [١] . لذلك فان وقوع منطقة سامراء في مكان محاذ الى النهر وفي الوقت نفسه بعيد عن خطر الفيضان كان من العوامل القوية التي أدت الى اختيار هذا المكان لانشاء العاصمة فيه .

هذا من جهة الغرب ، أما من الجهات الأخرى فان مجرى النهروان (مجرى الرصاصي أو القاطول الكسروي) الذي يتفرع من نهر دجلة من شمال مدينة سامراء يجري بموازاة نهر دجلة متجهاً نحو نهر العظيم بحيط بالمدينة من الجهتين الشمالية والشرقية ، كما أن مجرى نهر القائم الأسفل الذي يتفرع من نهر دجلة من جنوب مدينة سامراء ثم يلتقي بمجرى الرصاصي قبل وصوله الى العظيم بقليل يحيط بالمدينة من الجهة الجنوبية .

---

(١) ان اول ذكر جاء لفيضان دجلة وخطره على مدينة بغداد كان في سنة ٢٢٠هـ . (٨٣٦ م) . وذلك في شهر نيسان حينما كان المعتصم يريد القاطول ويريد البناء في سامراء فقد صرفه حينئذ عن قصـــده كثرة زيادة دجلة فامتنع عن الحركة وانصرف الى بغداد الى الشماسية حتى نزلت المياه الى مجاريها فعاد هو الى قضاء اعماله (راجع تاريخ الطبري ٣ — ١١٨٤) .

ولما كان لهذين المجريين ضفاف مرتفعة جداً وأن المياه كانت تجري في حوضيهما من دون انقطاع فقد أصبح الموقع الذي تقع فيه سامراء محاطاً بالمياه والأسوار من كل أطرافه . لذلك كان يكفي أن يقام سور يمتد على عرض المدينة بين مجرى الرصاصي ونهر دجلة إذا ما اقتضى فصل أي قسم من مدينة سر من رأى ، وهذا ما فعله المتوكل بعد أن أنشأ مدينة المتوكلية في أقصى الشمال إذ أقام سوراً عند مدخل المدينة يمتد من ضفة نهر الرصاصي اليمنى الى ضفة نهر دجلة اليسرى ، وبذا تمكن من عزل المدينة تماماً وتحويطها بالأسوار وبمجاري المياه من كل أطرافها . وأخيراً فان المجال لتوسع المدينة على سطح هذه الجزيرة المحاطة بالمياه كبير جداً ، حيث أن مساحتها تبلغ من السعة بحيث يمكن التوسع فيها الى مقياس واسع جداً دون أن يضيق بها السكان ، فان لها من المجال أن تمتد الى مسافة حوالي الستين كيلومتراً في الطول بمحاذاة نهر دجلة ومجرى الرصاصي كما أن لها من المجال للتوسع عرضاً الى مسافة تتراوح بين الكيلومترين والخمسة عشر كيلومتراً ، وقد أشغل فعلا القسم الأكبر من هذه المساحة .

وقد كان للنهروان منذ القديم مميزات عسكرية مهمة الى فوائده الزراعية ، فقد كان في زمن الفرس حصناً منيعاً يحمي بلاد فارس من غزوات الرومان ، حتى أن الفرس احتموا به في هجومهم على الرومان المتراجعين سنة ٣٦٣ م . وذلك حين انتصر الفرس على الرومان على أثر مقتل الامبراطور جوليان في تلك المعارك . وقد شهد النهروان وقائع كثيرة

بالنظر لمناعته واتخذه الخوارج مأوى يحتمون به حين نازعوا علياً بن أبي طالب (ع) على الخلافة غير أنهم هزموا شر هزيمة في المعركة الحاسمة التي وقعت سنة ٣٨ هـ . والمعروفة باسم واقعة النهروان .

وتتضح لنا أهمية هذا الموقع من الناحية العسكرية الستراتيجية حين نلاحظ أن الفرس اتخذوا موقع سامراء مركزاً عسكرياً حيث انشأوا فيه الحصن المعروف باسم « حصن سومير » (Sumere) وهو الحصن الذي جاء ذكره بمناسبة تراجع الجيوش الرومانية بعد مقتل جوليان سنة ٣٦٣ م .

٤ ـ المرحلة الاولى من انشاء مدينة سامراء

ويمكن القول بأن مدينة سامراء قد اجتازت مرحلتين في تاريخ انشائها ، المرحلة الأولى تشتمل على الأعمال العمرانية التي قام بها المعتصم والواثق ، والمرحلة الثانية تشمل التوسعات التي أضافها المتوكل في زمن خلافته . أما الأعمال التي أنجزت في زمن المعتصم فهي تأسيس المدينة وتنظيمها ، فقسم المعتصم المدينة الى أحياء وقطائع أسكن في كل حي صنفاً من جيشه وعني بعزل الجيش ودواوين الحكومة عن الأهلين . ويدل تخطيط المدينة على براعة فائقة في هندسة تخطيط المدن كما أن فيه كثيراً من الابتكار كما يتجلى ذلك في تنظيم الشوارع وتنسيق الأبنية العامة والأسواق والمتاجر والمساجد والأرصفة . وقد بلغ طول البناء الذي أقيم في زمن المعتصم زهاء أربعة فراسخ (حوالي عشرين كيلومتراً) فرسخان من شمال

المكان الذي تقع فيه مدينة سامراء الحالية وفرسخان من جنوبه . وقد مدت عدة شوارع عامة متوازية على طول هذه المسافة ، كما مدت دروب عدة عن يمين ويسار هذه الشوارع للاتصال بين شارع وآخر ، وأقيمت البنايات والدور والقطائع والأسواق والعمارات بين هذه الشوارع العامة .

وافرد المعتصم قطائع الاتراك عن قطائع الناس جميعاً وجعلهم معتزلين عنهم ولا يجاورهم إلا الفراغنة ، واقطع اشناس واصحابه في آخر البناء من الشمال الموضع المعروف بالكرخ أو كرخ سامراء [1] ، وضم اليه عدة من قواد الاتراك والرجال ومنعهم من الاختلاط بالناس ، وقد اقطع قوماً آخرين فوق الكرخ وسماه الدور [2] ، كما اقطع الافشين الاسروشني

---

(١) لاتزال آثار هذه القطيعة وبقايا أبنيتها يمكن مشاهدتها على بعد حوالي عشرة كيلومترات من شمال مدينة سامراء الحالية حيث لايزال سور ضخم من اللبن يعلو نحو خمسة امتار ويعرف بـ « سور اشناس » قائماً فى ذلك المكان وهو يضم اكاما يستدل من تناسق مظهرها انها بقايا قصر كان قد انشىء ضمن السور . وقد ذكر ياقوت في معجمه ان الموضع « كان يقال له كرخ فيروز منسوب الى فيروز بن بلاش بن قباذ الملك وهو اقدم من سامراء فلما بنيت سامراء اتصل بها وهو الى الان باق عامر وخربت سامراء وكان الاتراك الشبلية ينزلونه فى أيام المعتصم وبه قصر اشناس التركي مولى المعتصم وهو موضع مدينة قديمة على ارتفاع من الارض » . ويلي هذا السور سور يماثله يقع فى الجهة الشمالية الغربية منه يعرف باسم « سور الشيخ ولي » وفى داخل هذا السور بقايا بعض البناء وتسمى البقعة التي يقوم فيها السور باسم « الزنكور » .

(٢) يعرف هذا المكان باسم « دور العرباني » لتمييزه عن المكان الآخر الواقع في نفس المنطقة والمعروف باسم الدور ايضاً ، وهذا الأخير يقع على بعد عشرين كيلومتراً تقريباً الى الشمال وفيه على ما يزعم اهل سامراء قبر الامام محمد الدوري من اولاد موسى بن جعفر عليهما السلام ، وقد سماه ابن سرابيون « دور الحارث » كما سماه ياقوت « دور تكريت » لتمييزه عن « دور العرباني » .

في آخر البناء جنوبا وسمى الموضع المطيرة [1] ، فأقطع أصحاب الاسروشنية وغيرهم من المضمومين اليه حول داره وأمره أن يبني فيما هناك سويقة فيها حوانيت للتجار فيما لابد منه ومساجد وحمامات .

٥ ـ المرحلة الثانية من انشاء مدينة سامراء

أما المرحلة الثانية من انشاء مدينة سامراء فقد يصح لنا حصرها بعهد خلافة المتوكل ، وهو العهد الذي دام خمسة عشر عاماً بين سنة ٢٣٢ هـ . (٨٤٦ م .) و ٢٤٧ هـ . (٨٦١ م .) . وقد كان المتوكل مولعاً بالعمارات ففي عهده أنشئت عدة قصور فخمة وعدة مشاريع للري ، وقد أنشئت في هـذا العهد مدينة المتوكلية في أقصى الشمال ، وأختطت شوارع جديدة للوصول الى هذه المدينة . ومن أهم هذه الشوارع الشارع

---

(٢) ان موقع المطيرة لا يزال غير معين بصورة مضبوطة نظراً لوقوع دار الافشين بين الخرائب الكثيرة التي في القسم الجنوبي لسر من رأى . الا ان اليعقوبي ذكر بأن دار الافشين التي بالمطيرة تقع على بعد فرسخين (حوالي عشرة كيلومترات) من آخر حدود بناء سر من رأى في الجنوب . ثم اضاف الى ذلك قوله ان المتوكل انزل في عهد خلافته ابنه المعتز خلف المطيرة مشرقاً بموضع يقال له بلكوارا ، اما المطيرة فأنزل فيها ابنه ابراهيم المؤيد . ولما كان قصر بلكوارا قد عين موضعه في المكان المعروف بـ « المنقور » ، وهو القصر الذي في آخر حدود الأبنية من الجنوب ، فعلينا ان نتحرى عن مكان المطيرة في شمال هذا القصر مباشرة . ومن المحتمل ان يكون مكان المطيرة في الموضع الحالي المعروف باسم « سور جبيرية » بدليل انه لا يوجد بناء اعمر منه في هذه المنطقة . وقد ايد الشابشتي في كتاب « الديارات » وقوع المطيرة على مسافة فرسخين من جنوب سر من رأى حيث قال : « وبين القادسية وسر من رأى اربعة فراسخ والمطيرة بينهما ، وهذه النواحي كلها منتزهات وكروم وبساتين » .

الأعظم الذي يبلغ عرضه حوالي مائة متر ويمتد الى مسافة ١٢ كيلومتراً تقريباً . وعلى العموم فان مدينة سامراء بلغت أوج عزها وتوسعها في هذا العهد الذي يصح أن يعد العصر الذهبي لزوراء بني العباس .

٦ - مدينة المتوكلية

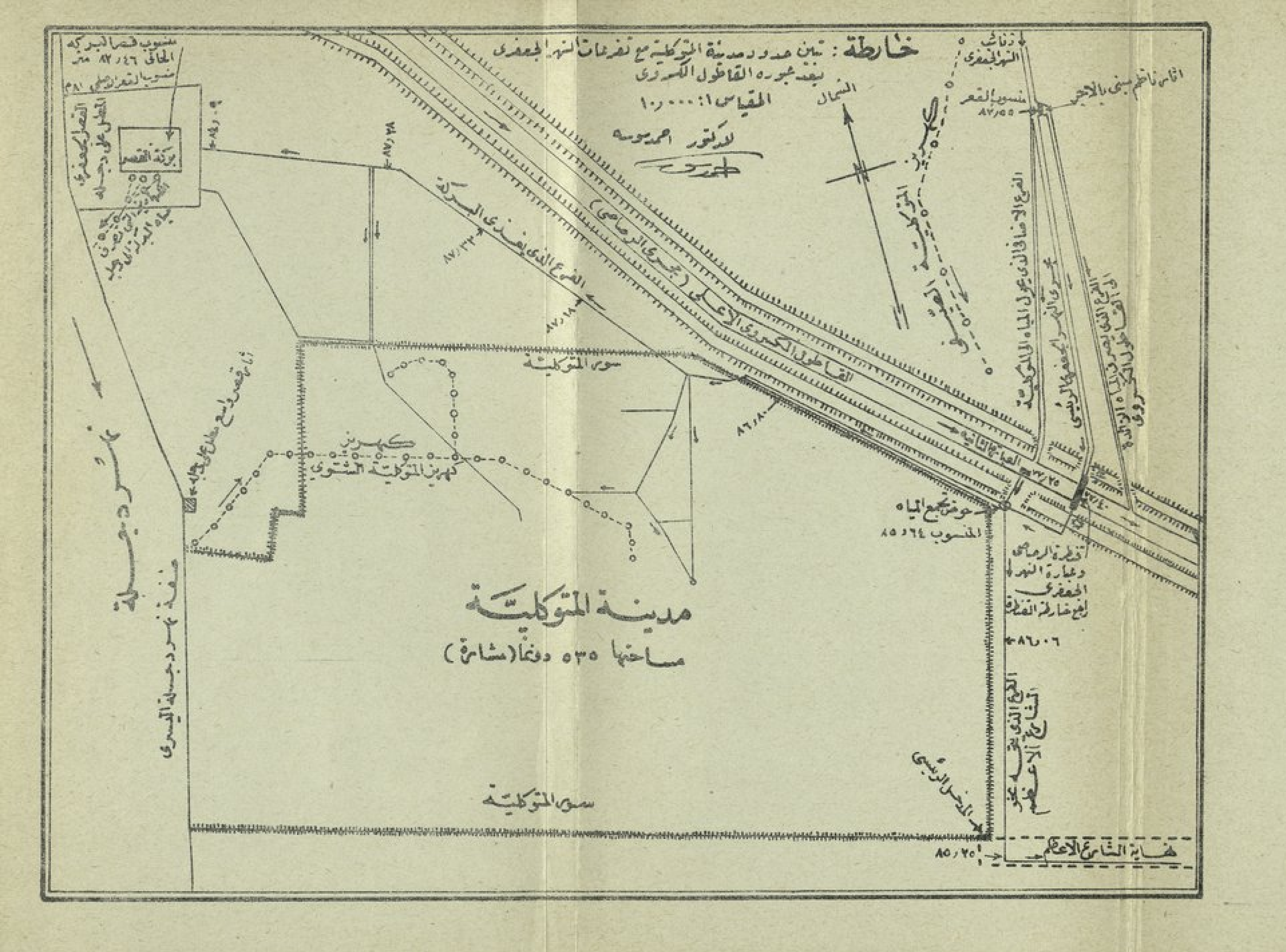
ولعل أهم التوسعات التي قام بها المتوكل هي التوسعات الممتدة الى جهة الشمال حيث اختار مكاناً في تلك الجهة وبنى مدينة جديدة سماها المتوكلية أو الجعفرية وانتقل اليها . أما المكان الذي وقع اختياره عليه فيقال له « الماحوزة » ، وهو المكان الذي قيل إن المعتصم كان قد فكر في إنشاء مدينة فيه . وتقع خرائب المتوكلية على ضفة نهر دجلة في أقصى الشمال على بعد حوالي عشرة كيلومترات من آخر البناء الذي في الدور (دور العرباني) ، وهو الحد الشمالي لبناء المعتصم ، ويكون ذلك على بعد حوالي عشرين كيلومتراً من شمال سامراء الحالية . ويشاهد الزائر اليوم السور الضخم الذي يحيط بالمتوكلية ، وهو يبلغ مجموع طوله حوالي أربعة كيلومترات ونصف كيلومتر ، أما مساحة الأراضي التي داخل السور فتبلغ حوالي ٥٤٠ دونماً (مشارة) . وهناك سور آخر في جنوب المدينة بقليل يمتد بين ضفة القاطول الكسروي اليمنى ونهر دجلة ، فيفصل هذا السور الخارجي مدينة المتوكلية ومشتملاتها عن مدينة سر من رأى التي في الجنوب فيجعلها في عزلة عن المدينة القديمة ، وفي هذا السور باب ضخم

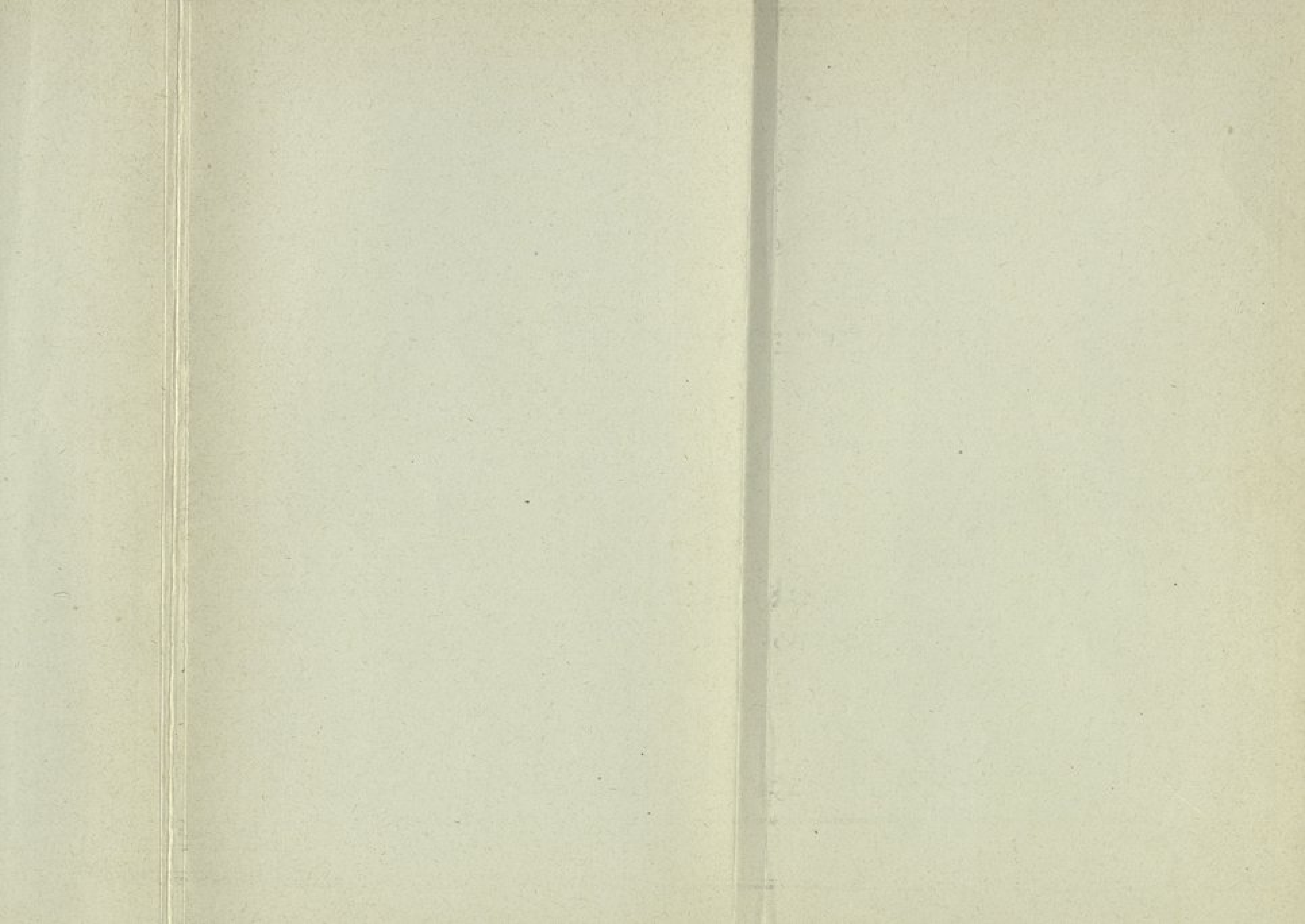
في وسط السور الذي هو المدخل العام للمدينة ، ولا تزال آثار بناء هذا الباب ظاهرة على الطريق العام (الشارع الأعظم) المؤدي الى المتوكلية (راجع خارطتي الشارع الأعظم والمتوكلية) .

ولا تزال بقايا القصر الجعفري الذي في الماحوزة وبركته الواسعة تشاهد على ضفة نهر دجلة في شمال مدينة المتوكلية وذلك في الزاوية التي يكونها نهر دجلة من جهة ونهر القاطول الكسروي من الجهة الثانية . وقد اشتهر هذا القصر بحسنه وفخامته فكان مصدر وحي الشعراء والكتاب . وقد ذكر ياقوت أن كلفة بناء هذا القصر بلغت خمسين مليون درهم (راجع خارطة مدينة المتوكلية) .

وقد امتاز المتوكل على كل أسلافه في عنايته الخاصة بالمشاريع العمرانية وبذله الأموال الطائلة عليها ، فقد ذكر ياقوت الحموي في معجمه أنه لم يبن أحد من الخلفاء بسرّ من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل . ثم قال إن مجموع ما أنفقه المتوكل على قصوره بلغ زهاء ثلثمائة مليون درهم ، أي حوالي اثني عشر مليون دينار باعتبار أن الدراهم كانت في أيام المتوكل كل خمسة وعشرين درهماً بدينار . ويشير المسعودي الى النفقات الطائلة التي بذلها المتوكل في سبيل مشروعاته العمرانية في سرّ من رأى إذ يقول : « وقد قيل إنه لم تكن النفقات في عصر من الأعصار ولا وقت من الأوقات مثلها في أيام المتوكل » .

وقد نقل المتوكل جميع الدواوين الى مدينته الجديدة ، واقطع ولاة


خارطة : تبين حدود مدينة المتوكلية مع تفرعات النهر الجعفري
بعد مجاوزة القاطول الكسروي
المقياس ١ : ١٠،٠٠٠
للدكتور احمد سوسه
الشمال
القاطول الكسروي الأعلى (مجرى الرصاصي)
العرائانية
الفرع الذي يغذي البركة
بركة القصر
سور المتوكلية
كهريز المتوكلية الشتوي
كهريز
حوض تجمع المياه
المنسوب ٨٥٫٦٤
قنطرة الرصاصي وعبارة النهر الجعفري
مدينة المتوكلية
مساحتها ٥٣٥ دونماً (مشارة)
سور المتوكلية
نهاية الشارع الأعظم
الشارع الرئيسي
نهر دجلة
ضفة نهر دجلة اليسرى
منسوب القعر
٨٧٫٥٥
٨٧٫٣٣
٨٧٫١٨
٨٧٫٢٨
٨٦٫٠٦
٨٥٫٢٠



عهوده وسائر أولاده وقواده وكتابه وجنده والناس كافة ، فاتسع البناء في المنطقة الشمالية هذه التي تمتد بين آخر البناء في الدور من جهة ، وآخر الحدود الشمالية لمدينة المتوكلية من الجهة الأخرى مسافة حوالي خمسة عشر كيلومتراً . وقد فتح شارعاً عاماً يمتد بين دار اشناس التي بالكرخ وقصوره في الشمال سمي باسم « الشارع الأعظم » . واقطع الناس يمنة هذا الشارع ويسرته وجعل عرضه مائتي ذراع ، وكذلك شق الدروب من جهتيه ، وكانت الدروب التي على جهة نهر دجلة تنتهي بالنهر هناك والدروب التي على الجهة الشرقية من الشارع تنتهي في آخر البناء من جهة الشرق . وهكذا فقد اتصل البناء من المتوكلية الى الدور ثم بكرخ اشناس وسرّ من رأى « ماراً الى الموضع الذي كان ينزله المعتز ابن المتوكل ليس بين شيء من ذلك فضاء ولا فرج ولا موضع لا عمارة فيه ، فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ » . وقد تم كل ذلك في اقل من عامين حيث بدأ المتوكل بمشروع مدينته الجديدة في سنة ٢٤٥ هـ . وقد اتمه في نهاية سنة ٢٤٦ هـ . حيث انتقل الى المدينة الجديدة في اليوم الأول من محرم سنة ٢٤٧ هـ . وقد تكامل السرور للمتوكل بعد ذلك فقال : « الآن علمت اني ملك إذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها »[١] . ولكي يؤمن ايصال المياه الى مدينته الجديدة هذه بالطريقة السيحية قام باحياء النهر القديم الذي يتفرع من دجلة شمالا واوصله الى مدينة المتوكلية ،

(١) كتاب البلدان لليعقوبي .

وهو النهر الذي سمي باسمه أي النهر الجعفري وسيأتي البحث عنه فيما يلي .

٧- كهريز المتوكلية [١]

ولكي يستطيع المتوكل الشروع بانشاء المدينة الجديدة وايصال المياه الى أماكن العمل دون ان يضطر الى الانتظار حتى ينتهي من مشروع النهر أمر بانشاء كهريز يأخذ المياه من أعالي نهر دجلة ويحملها الى نواحي العمل في المدينة ، ويمكن تتبع آثار هذا الكهريز على طول المسافة بين صدره حتى مدينة المتوكلية ، فهو يبدأ من نهر دجلة بالقرب من التلول المعروفة باسم « تلول هطرة » والواقعة على الحدود الشرقية لحاوي البوعجيل وذلك في نقطة تقع على بعد حوالي اثنى عشر كيلومتراً من شمال الدور (دور تكريت) وحوالي ثمانية كيلومترات من جنوب مدينة تكريت ، ثم يمتد بموازاة قناة سامراء من شرقيها [٢] فيخترق الدور ويتابع سيره الى جانب كهريزي قناة سامراء حتى إذا ما قطع مسافة حوالي أربعة كيلومترات جنوبي الدور وصار أمام قنطرة الرصاصي التي على القاطول

---

(١) الكهريز هو المجرى الذي يحفر على شكل نفق تحت الأرض لسحب المياه الجوفية واسالتها الى الأراضي الزراعية سيحاً .

(٢) ان المقصود بقناة سامراء الكهريز الذي حفره المتوكل لحمل المياه به من دجلة الى مدينة سامراء . وهذه القناة مؤلفة من كهريزين احدهما يستعمل في موسم الفيضان والآخر في موسم الصيهود ، وهذان الكهريزان يتفرعان من الجانب الشرقي لنهر دجلة في نقطة تقع على بعد اربعة كيلومترات من شمال الدور (دور تكريت) ، فيسيران بموازاة الضفة الشرقية لنهر دجلة ثم بموازاة نهر القاطول الكسروي من جهة الشرق ، وبعد ذلك يقطعان القاطول المذكور ويتجهان نحو مدينة سامراء .

الكسروي [١] انحرف الى الغرب واتجه نحو مدينة المتوكلية الواقعة على بعد حوالي أربعة كيلومترات من نقطة الانحراف . ويقطع الكهريز في طريقه الأخير قناة سامراء قرب نقطة انحرافه الى الغرب ، كما أنه يقطع القاطول الكسروي عند قنطرة الرصاصي الواقعة على بعد حوالي سبعة كيلومترات من صدر القاطول الذي عند الدور . ولا تزال آثار شبكة الكهاريز الفرعية التي تتفرع من الكهريز المذكور يمكن مشاهدتها في عدة أمكنة داخل مدينة المتوكلية .

ويسمى الآن هذا الكهريز عند صدره « الايتر » ، أما تلول هطرة التي يتفرع من عندها الكهريز فلا شك أنها مدينة « هاطري » التي ذكر ياقوت انها « قرية بينها وبين الجعفري الذي عند سامراء (أي القصر الجعفري الذي في المتوكلية) ثلاثة فراسخ وهي دون تكريت وأسفل منها الدور الأعلى المعروف بالحربة (أي دور تكريت) وكان أكثر أهلها اليهود » . وهذا يتفق مع المسافة الحالية بين تلول هطرة وأطلال القصر الجعفري .

ومن المحتمل أن الكهريز المذكور كان يستعمل في موسم الصيف حيث تشاهد آثار كهريز آخر في الجنوب يرجح أنه كان يستعمل في موسم الفيضان . ويتفرع الكهريز الأخير من نهر دجلة ايضاً ، وذلك من جنوب

---

(٤) حول هذه القنطرة ، راجع البحث الذي يلي في المادة (١٨) « عبارة النهر الجعفري على القاطول الكسروي » .

صدر الكهريز الأول في نقطة تقع جنوب قصر الجعفري في الزاوية التي بين القاطول الكسروي ودجلة فيتجه نحو المتوكلية ويدخلها من جهتها الشمالية بعد مسافة قليلة جداً من صدره .

٨ - سير العمل على حفر نهر المتوكلية أو النهر الجعفري

وفي الوقت الذي كان العمل على إنشاء المدينة جارياً على قدم وساق كان العمل على حفر النهر الذي اعتزم المتوكل على حفره لايصال المياه به الى مدينته الجديدة جارياً ايضاً بنفس السرعة والاهتمام . فيروي لنا الطبري أن المتوكل عهد أمر « النفقة عليه الى دُليل بن يعقوب النصراني كاتب بغا بعد أن شرع بالعمل في شهر ذي الحجة من سنة ٢٤٥ هـ . وألقى في حفر النهر اثنى عشر الف رجل يعملون فيه » . ويقول اليعقوبي إن كلفة المشروع قدرت بمليون ونصف مليون دينار ، وعلى الرغم من جسامة هذا المبلغ « طاب المتوكل نفساً بذلك ورضي به ، وابتدأ الحفر وأنفقت الأموال الجليلة على ذلك النهر » .

٩ - اقامة المتوكل في قرية المحمدية للاشراف على أعمال النهر

ويلاحظ أن المتوكل كان يشرف شخصياً على اعمال المدينة الجديدة في الماحوزة (المتوكلية) وحفر النهر الذي يمدها بالمياه حيث انتقل من سر من رأى وجعل مقره في قرية المحمدية ليكون قريباً من محل العمل

فيسهل عليه الاشراف عليه عن كثب [١] . أما مكان قرية المحمدية فيقول البلاذري انها قريبة من الماحوزة (مكان المدينة الجديدة) وانها كانت تعرف بالايتاخية نسبة الى ايتاخ التركي « ثم سماها المتوكل المحمدية باسم ابنه محمد المنتصر ، وكانت تعرف أولا بدير أبي الصُفرة وهم قوم من الخوارج » ؛ غير أن ابن سرابيون اعتبر الايتاخية والمحمدية قريتين منفصلتين فذكر أنهما يقعان بالقرب من بعضهما على القاطول الكسروي الأعلى — الايتاخية من الشمال والمحمدية جنوبها — وذلك على مسافة قليلة من جنوب قنطرة الرصاصي . وقد أضاف ابن سرابيون الى ذلك قوله انه كان على القاطول جسر من الحجارة عند الايتاخية وجسر من الزواريق عند المحمدية .

أما الموضع الذي كانت قرية المحمدية تقع فيـه بالنسبة الى الاطلال المتبقية فلم نعثر على مكان يتفق مع وصف ابن سرابيون غير التل المعروف باسم « تل الاصيبعين » الواقع على الضفة اليمنى للقاطول الكسروى عند الكيلومتر (١٣ر٥٠٠) من صدره حيث تقع بالقرب من هذا التل في جهة الغرب خرائب يرجح أنها تابعة لاطلال التل المذكور . ثم هناك تل آخر جنوبي تل الاصيبعين عند الكيلومتر (١٨ر٣٠٠) من صدر القاطول يعرف باسم « تل تمر » ، وهـذا التل يقع على الضفة اليمنى من القاطول ايضاً على مسافة حوالي ثلثمائة متر من جنوب « شعبة

---

(١) راجع الطبري (٣ : ١٤٣٨)

تمر »[١] ومسافة أربعة كيلومترات من شمال « فكة مربر »[٢] ، وفيه آثار قصر قديم وبقربه على حافة القاطول توجد آثار قصر آخر ، وكذلك خرائب مجاورة تمتد غرباً حتى تتصل بالشارع الأعظم . ويغلب على الظن أن قرية المحمدية كانت في أحد هذين الموضعين . أما إذا أخذنا بقول ابن سرابيون وهو أن هناك قريتين تعرفان بالايتاخية والمحمدية فتكون هاتان القريتان في المكانين المذكورين أي في تل الاصيبعين وتل تمر .

١٠ـ منشأ النهر وتاريخه وأهدافه

وقد يكون من المفيد قبل أن نبحث في النهر الذي حفره المتوكل أن نتتبع منشأ المشروع وتاريخه القديم الذي يرجع الى ما قبل عهد المتوكل ، ولكي يتسنى لنا أن نقف على ذلك علينا أن نستند أولا الى الروايات التاريخية ان وجدت ثم الى الآثار والاطلال المتبقية والمناسيب وغير ذلك من المعلومات التي تهدينا الى حقيقة الوضع . ومن الروايات التاريخية التي تؤيد رجوع المشروع الى ما قبل عهد العرب ما كتبه اليعقوبي في هذا الصدد حيث قال : « وعزم المتوكل أن يبتني مدينة ينتقل اليها وتنسب اليه ويكون له بها الذكر فأمر محمد بن موسى المنجم ومن يحضر بابه من

---

(١) ان شعبة تمر هذه هي الفكة التي ينتهي اليها احد مصارف قناة سامراء في الضفة اليسرى للقاطول حيث نجد هناك نهراً واسعاً مخرجه من قناة المتوكل من أمام شعبة تمر فيسير غرباً حتى يصب في الضفة اليسرى للقاطول عند الشعبة المذكورة .

(٢) ان فكة مربر هذه هي المكان الذي تعبر فيه قناة سامراء القاطول الكسروي وذلك عند قطعها المسافة التي بين نهر دجلة ومدينة سامراء .

المهندسين أن يختاروا موضعا فوقع اختيارهم على موضع يقال له الماحوزة وقيل له ان المعتصم قد كان على أن يبني مدينة في الموضع الذي يقال له الماحوزة ويحفر نهراً قد كان في الدهر القديم فاعتزم على ذلك وابتدأ النظر فيه في سنة خمس واربعين ومائتين ووجه في حفر ذلك النهر ليكون وسط المدينة » . والذي يؤيد صحة وجود هذا النهر في الدهر القديم هو أن المتارب المتكونة من الحفريات الأخيرة وضعت على بعد بضعة امتار عن متارب الضفة الأصلية بحيث يمكن تمييز المتارب القديمة من تلك التي تكونت من الحفريات الجديدة . ويلاحظ ايضاً أن هناك عدة مجار في صدر النهر يستدل منها أن بعضها يرجع الى عهود قديمة تعود الى ما قبل عهد العرب ؛ كما أن هناك في بعض أقسام النهر مجار قديمة موازية الى النهر الرئيسي ، وبعض هـذه المجاري يتقاطع مع المجرى الرئيسي بحيث يصبح قسم في الجانب الشرقي والقسم الآخر في الجانب الغربي مما يدل على أن هذه المجاري ترجع الى عهد قديم يعود الى ما قبل زمن المتوكل . وعلى هذا نجد أن هناك تسميات مختلفة أطلقت على مختلف أقسام النهر ولا تزال تعرف هذه الأقسام بهذه التسميات كتسمية « النهر العتيق » للقسم الأعلى للنهر مثلا وتسمية « الحفر » أي الحفر الجديد للقسم الآخر ، أما التسمية العامة التي يعرف بها النهر اليوم فهي « نهر نايفة » .

وبالنظر لما تقدم نميل الى الاعتقاد بأن منشأ النهر يرجع الى عهد الفرس أو الى ما قبل ذلك أي الى زمن الكلدانيين أو الآشوريين ثم جاء المتوكل فأعاد حفره .

والفرق الذي نلاحظه بين النهر القديم وبين جدول المتوكل ينحصر في الغاية التي انشىء كل منهما من أجلها ، فان الغاية الأساسية التي كان يستهدفها النهر القديم ارواء مساحة كبيرة من المزارع وهذه هي الأراضي السهلة الواقعة على ضفته اليسرى بين بحيرة الشارع ونهر دجلة أي المنطقة الواسعة المعروفة بـ « حويجة سامراء » والأراضي الزراعية الواقعة على ضفته اليمنى بينه وبين نهر دجلة ، على حين أن الغاية من انشاء جدول المتوكل الذي اتبع نفس اتجاه النهر القديم هي ايصال المياه الى مدينة المتوكلية سيحاً وذلك بأي ثمن كان بغض النظر عن مساحة الأراضي الزراعية التي يمكن ارواؤها من الجدول . هذا وإذا اختلف الاثنان في المرمى الذي يحققانه فانهما يتفقان في طريقة تصميم الجدول وذلك من حيث سحب المياه من نهر دجلة الى صدر الجدول ، ففي كلا العهدين (العهد القديم وعهد المتوكل) كان الجدول قد صمم على أساس سحب المياه من النهر من دون قناطر أو سد على نهر دجلة لرفع مناسيب المياه في النهر في موسم الصيهود، والذي كان يساعد على ذلك هو أن صدر الجدول يقع على مسافة بعيدة من شمال حدود الدلتا ، وبذا كان يسحب المياه من أعالي النهر حيث تكون المناسيب مرتفعة ويكون النهر في تلك الأقسام اكثر ثباتاً من حيث تطور المناسيب ومن حيث تحوّل المجرى .

ومن الروايات المتواترة أن أميرة تسمى باسم نايفة قامت بحفر النهر فسمي باسمها . وتذهب هذه الروايات الى أن الأميرة نايفة هذه كانت

بنت الملك هطرون الذي كان له ابنتان احداهما الأميرة نايفة والثانية تسمى الأميرة فاخرة . ولما قام الأب الملك بتقسيم ملكه على ابنتيه وقعت حصة الأميرة نايفة في القسم الجنوبي الذي يبدأ في جبل حمرين ويمتد الى الجنوب ، أما الأميرة فاخرة فكانت حصتها في شمال جبل حمرين . وتقول هذه الروايات ايضاً ان اطلال هطرة التي سبق وذكرنا ان صدر كهريز المتوكل يقع عندها كانت مدينة الملك هطرون كما كان التل المعروف بـ « تل مهيجير » الذي يقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة أمام قصر الجعفري مكان قصر أخيه هجرون . أما مبلغ الصحة في هذه الروايات فلا نستطيع الحكم فيه على أنه قد يصح لنا ان نستدل منها بأن النهر يرجع الى ما قبل العهد العربي .

١١ـ تخطيط مشروع النهر

يتفرع النهر الجعفري من الضفة اليسرى لنهر دجلة في نقطة تقع على بعد خمسة كيلومترات تقريباً من جنوب بيجي وحوالي ٣٨ كيلومتراً من شمال تكريت و ٦٣ كيلومتراً من شمال صدر القاطول الكسروي الذي يتفرع من نهر دجلة عند الدور ، وذلك من منتهى سفوح سلسلة جبل حمرين التي تقطع مجرى دجلة بالقرب من بيجي فتؤلف هناك مضيق الفتحة المعروف . ويسير الجدول من الشمال الى الجنوب بمحاذاة الضفة اليسرى لنهر دجلة من جهة الغرب وبموازاة المنطقة الجبلية المرتفعة من جهة الشرق ،

وبعد ان يقطع مسافة عشرين كيلومتراً تقريباً في هذا الاتجاه ينحرف الى الشرق قليلا فيحاذي سفوح المنطقة المرتفعة مبتعداً عن نهر دجلة الى مسافات تتراوح بين الخمسة والستة كيلومترات ، فيكون أمام تكريت عند الكيلومتر (٣٧) من الصدر ومقابل الدور (دور تكريت) عند الكيلومتر (٥٤٫٥) من الصدر ، وبعد ان يجتاز النهر الدور ويسير الى مسافة كيلومتر ونصف جنوبيها يصل الى تل اصطناعي مرتفع يقع في وسط الجدول ويسمى « تل البنات » . وتل البنات هذا تل كبير يحوطه الجدول من كل أطرافه ، حيث ينقسم الجدول في هذا المكان الى فرعين الفرع الغربي يحيط بالتل من جهة الغرب والفرع الشرقي يحيط به من جهة الشرق ثم يعود الجدول فيتوحد من جديد بالتقاء الفرعين بعد تحوبطها لموقع التل وجعله بشكل جزيرة يحيط بها النهر من كل جانب .

ونميل الى الاعتقاد بأن التل المذكور من أعمال المتوكل وقد أنشىء في نفس الوقت الذي حفر فيه النهر . والأرجح أن الغاية التي أنشيء من أجلها هي نفس الغاية التي كان يستهدفها تل العليق الذي أنشأه المتوكل شمال شرقي سامراء لتأمين تفرجه ورجال حاشيته من محل مرتفع على حلبة السباق التي أنشأها هناك ، حيث يظهر لنا بأن المتوكل كان ينوي نقل حلبة السباق التي كان قد انشأها في سامراء الى هذا المكان ، أي الى الساحة الواسعة التي تمتد شرقي النهر الجعفري ، وذلك بعد اتمام حفر النهر

إلا أن الظروف لم تسمح له بتنفيذ ذلك [١] . ويوجد فوق التل بناء اقتلع آجره مما يدل على أنه أنشئت هناك مقصورات لجلوس الخليفة وحاشيته .

وبعد أن يجتاز الجدول تل البنات يقترب من نهر دجلة فيصبح على بعد أقل من كيلومترين منه حتى إذا ما سار الى مسافة ستة كيلومترات من تل البنات انتهى الى مجرى القاطول الكسروي عند القنطرة المعروفة بـ « قنطرة الرصاصي » والواقعة عند الكيلومتر (٧٫٥٠٠) من صدر القاطول الكسروي . وهنا يتشعب النهر الى ثلاثة فروع ، فرعان يعبران من فوق القاطول على عبارتين تقع احداهما شمالي قنطرة الرصاصي بقليل وتمتد الأخرى فوق قنطرة الرصاصي نفسها ؛ أما الفرع الثالث فينصب في مجرى القاطول في أقصى الجنوب من جهة الشرق . وكان الفرع الأخير يأخذ المياه الزائدة التي تتجمع في النهر فيصبها في القاطول ، وعلى هذا فقد انشيء ناظم في صدره لتنظيم المياه التي تصرف الى القاطول ، ولا تزال آثار هذا الناظم يمكن مشاهدتها في صدر هذا الفرع في المكان الذي يتشعب فيه النهر الى الفروع الثلاثة المذكورة . أما الفرعان اللذان يعبران مجرى القاطول فكانا ينتهيان في حوض انشيء في الضفة اليمنى للقاطول لجمع مياه نهر الجعفري فيه ثم تحويلها الى السواقي التي تنتهي

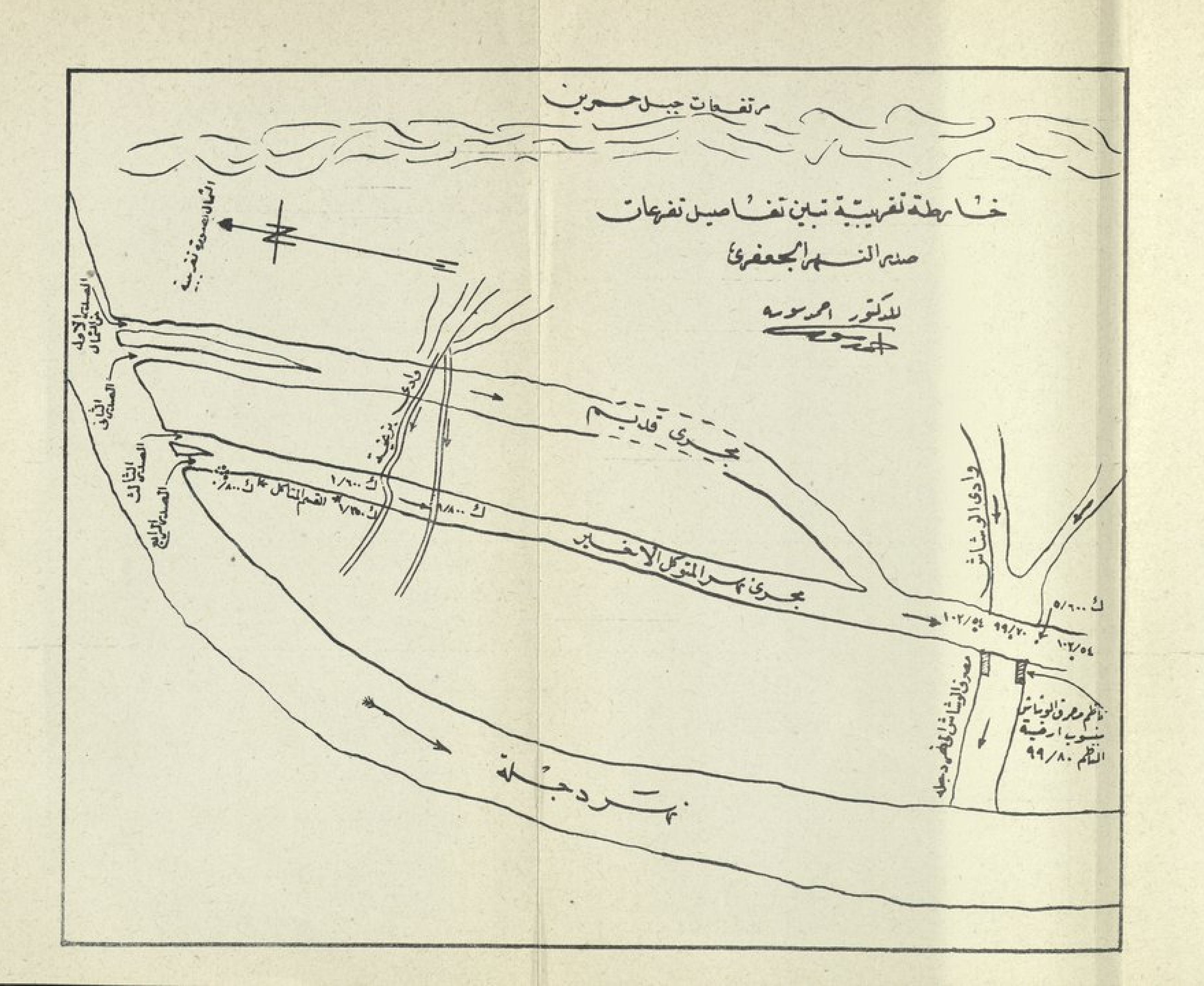
---

(١) تذهب الروايات المتواترة الى ان تل البنات هذا كان مكان القصر الذي انشأته الأميرة نايفة لبناتها وقد حوطته بمجرى النهر من كل أطرافه ليكون منعزلا عن البر بحيث يتعذر الوصول اليه أو الخروج منه بدون واسطة جسور ، الا ان هذه الرواية هي أقربَ الى الاسطورة منها الى الواقع .

في مدينة المتوكلية . فهناك فرع كان يتشعب من الحوض فيمد السواقي التي على جانبي الشارع الأعظم بالمياه ، كما أن هناك فرعاً آخر يتفرع من الحوض ايضاً فيسير غرباً بين سور المتوكلية والقاطول الكسروي، وبعد أن تتشعب منه عدة فروع تتجه نحو مدينة المتوكلية ينتهي في بركة قصر الجعفري (راجع خارطة مدينة المتوكلية) . ويتضح مما تقدم أن طول النهر الجعفري بين صدره عند نهر دجلة ونهايته عند بركة قصر الجعفري يبلغ حوالي ٦٣ كيلومتراً .

١٢ـ صدر النهر ومناسيبه

للنهر أربعة صدور قريبة من بعضها كلها تتفرع من نهر دجلة وليس في أي منها أثر لبناء أو ناظم ، إلا أن وضع مجرى النهر يدل على أن هذه الصدور كانت تمتد الى مسافة غير قليلة الى الشمال الغربي حين كان مجرى نهر دجلة يسير غرب اتجاهه الحالي ، ولما تحولت دجلة الى مجراها الحالي باتجاه الشرق أصبحت الصدور الأصلية للجدول في وسط مجرى دجلة فلم تترك لها أي أثر. هذا بدليل أن مجرى الصدر الأخير من الجنوب يسير مسافة خمسين متراً فقط ثم يتصل بمجرى الصدر الثالث الذي يتقدمه شمالا ، الأمر الذي يحمل على الاعتقاد بأن المجرى هذا كان يمتد غرباً الى مسافة أخرى قد لا تقل عن مائتي متر ، وهذه المسافة أصبحت في وسط نهر دجلة بعد أن تحوّل مجراه من جهة الغرب الى الجهة الشرقية . (راجع خارطة تفاصيل تفرعات صدر النهر الجعفري) .



مرتفعات جبل حمرين
خارطة تقريبية تبين تفاصيل تفرعات
صدر النهر الجعفري
للدكتور احمد سوسه
الشمال بصورة تقريبية
الصدر الاول من الشمال
الصدر الثاني
الصدر الثالث
الصدر الرابع
وادي برنيخ
مجرى قديم
مجرى نهر المتوكل الاخير
القصر المتآكل
وادي الوشاش
ناظم مجرى الوشاش
منسوب ارضية الناظم ٩٩/٨٠
مجرى الوشاش الى نهر دجلة
نهر دجلة



والظاهر أن أحدث هذه الصدور هو الصدر الثالث من الجنوب ، وهو صدر المجرى الذي حفره المتوكل ، ويبلغ عرض قعر هـذا المجرى حوالي ٢٥ متراً ومعدل ارتفاع ضفافه زهاء أربعة أمتار . أما الصدران الآخران اللذان يتقدمان مجرى المتوكل هذا الى الشمال فيسير مجرياهما بموازاة مجرى المتوكل وأن أطولهما هو الأول من الشمال الذي يبدأ قعره بمنسوب ١٠٧ر٣٣ متراً فوق سطح البحر فيمتد مسـافة حوالي ٥٠٠ر٥ كيلومتراً بموازاة مجرى المتوكل ثم ينتهي عنده . ويمتد المجرى الثاني مسافة نصف كيلومتر تقريباً وذلك بين مجرى المتوكل (المجرى الثالث) والمجرى الأول من الشمال ثم ينتهي عند المجرى الأول ، ويبلغ منسوب قعر الصدر الثاني هذا ١٠٨ر٢٢ متراً ، وأما المجرى الرابع الأخير فقصـير جداً ، والأرجح أنه كان صدراً ثانياً لمجرى المتوكل يستعمل في موسم الفيضان . ويبدأ هـذا المجرى بمنسوب ١٠٦ر١٠ متراً وبعد أن يسير مسافة خمسين متراً بموازاة مجرى المتوكل من جهة الغرب ينتهي عنده [١] .

---

(١) ان تعدد الفوهات في صدر الانهر القديمة أمر مألوف حيث كان الأقدمون يصممون جداولهم على أساس جعل فوهتين للجدول احداهما تستعمل في الشتاء والأخرى في الصيف ، كما كانوا يفتحون جداولهم دون ان ينشأوا نواظم بنائية في فوهاتها ، ومع انهم كانوا يتكبدون مشقات كثيرة في ضبط فوهات جداولهم في الفيضان ، الا انه كان لديهم مجال لتبديل مواقع فوهات الجداول بين حين وآخر كلما اندرست احداها وتراكمت فيها الاتربة والاحجار مما يحول دون دخول المياه اليها .

ويبلغ منسوب قعر صدر جدول المتوكل (الصدر الثالث) ١٠٥ر٥٦ متراً فوق سطح البحر وبذلك يكون اوطأ الصدور الأخرى ، ولما كان معدل منسوب المياه في نهر دجلة أمام هذا الصدر يبلغ في الوقت الحاضر حوالي ١٠٤ر٥ متراً في موسم الفيضان وزهاء ١٠٠ متر في موسم الصيهود فان قعر صدر الجدول يكون أعلى من معدل منسوب مياه فيضان النهر في موقع هذا الصدر حوالي نصف متر فقط وأعلى من معدل منسوب مياه الصيهود في نهر دجلة في ذلك المكان زهاء خمسة أمتار . وقد دلت نتائج تدقيقاتنا في المنطقة التي يقع فيها صدر الجدول أن مياه دجلة دخلت الى النهر وسارت فيه الى مسافة بضعة كيلومترات ، وذلك عندما سجلت مياه دجلة أعلى منسوب في شهر شباط من سنة ١٩٤١ حيث ارتفع منسوب مياه الفيضان أمام صدر مجرى المتوكل الى حوالي ١٠٦ أمتار فوق سطح البحر .

أما ارتفاع قعر صدر الجدول عن منسوب مياه نهر دجلة الحالي فترجع عوامله أولا الى الهبوط القليل الذى حصل في مستوى مياه نهر دجلة في ذلك المكان وذلك بعد تحول مجرى دجلة في جنوب سامراء في حوالي أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، وهو التحول الذي أدى الى هبوط منسوب مياه النهر هناك الى ما لا يقل عن تسعة أمتار ، ثم الى انطمار الصدر بالاتربة بعد اندراس الجدول . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد هو أن جدول المتوكل يقع على بعد حوالي ١٤٠ كيلومتراً من شمال الموقع الذي حصل فيه تحول مجرى دجلة ، وإذا كان قد هبط منسوب مياه دجلة

في مكان التحول قرب بلد حوالي عشرة أمتار فنعتقد أن الهبوط الذي حصل أمام صدر جدول المتوكل بتأثير هذا التحول لم يتجاوز الثلاثة أمتار . وبذلك قد يصح لنا أن نقول إن منسوب المياه الصيفي في نهر دجلة كان في الزمن الذي انشيء فيه جدول المتوكل حوالي (١٠٣) امتار ، وعلى هذا الأساس يجوز لنا أن نقول أيضاً ان قعر صدر جدول المتوكل في النقطة التي يتفرع فيها نهر دجلة كان قد صمم بمنسوب حوالي (١٠١) متراً ، بدليل أن منسوب قعر الجدول الأصلي عند الكيلومتر (٥٫٦٠٠) من الصدر يبلغ (٩٩٫٨٠) متراً وهو منسوب أرضية الناظم المنشأ في ذلك المكان لصرف المياه الزائدة الى دجلة ، هذا إذا اعتبرنا أن عمق الماء في الجدول في موسم الصيهود يبلغ حد المترين . كل ذلك مما يدل على أن صدر جدول المتوكل كان فيه من التسلط ما يمكنه من سحب المياه في اوطأ مناسيب المياه الطبيعية في نهر دجلة دون لزوم انشاء سد على النهر لرفع مستوى المياه فيه . وعليه فان نجاح مشروع المتوكل كان مضموناً كما ايد ذلك الخبراء قبل الشروع به وذلك لولا خطأ التقدير في حفريات الجدول الذي أدى الى فشله كما سنرى .

١٣ـ موقع الصدر كما في الطبري وياقوت

ومما قاله الطبري بصدد موقع صدر النهر الجعفري انه يتفرع من نقطة تقع على بعد خمسة فراسخ (أي حوالي ٢٥ كيلومتراً) فوق الماحوزة

(المتوكلية) في مكان يقال له «كرمى» وان المتوكل أمر باستملاك هذا المكان ومعه القرى والأراضي المجاورة وذلك لتكون من ضمن أملاك الخليفة التابعة للنهر . واليك ما كتبه في هذا الصدد قال : «وأمر (المتوكل) بحفر نهر يأخذ رأسه خمسة فراسخ فوق الماحوزة من موضع يقال له كرمى يكون شرباً لما حولها من فوه النهر اليها وأمر بأخذ جبلتا والخصاصة العليا والسفلى وكرمى وحمل اهلها على بيع منازلهم وارضهم فأجبروا على ذلك حتى تكون الأرض والمنازل في تلك القرى كلها له ويخرجهم عنها»[1].

ولا شك ان الطبري اخطأ التقدير فيما يختص بموقع صدر النهر من الماحوزة لأن المسافة الحقيقية بين المتوكلية وصدر النهر تبلغ حوالي ٦٣ كيلومتراً كما أسلفنا . غير ان ياقوت وابن عبدالحق كانا قريبين جداً من الواقع في تقديرهما لهذه المسافة حيث ذكرا ان فوهة النهر تقع على مسافة عشرة فراسخ من الجعفري (حوالي ٥٠ كيلومتراً) وهذه قريبة جداً من المسافة الحقيقية . وقد أضافا الى ذلك قولهما ان مكان فوهة النهر كان يعرف باسم « جبة دجلة » . واليك ما كتبه ابن عبدالحق في مادة (الجعفري) قال : « الجعفري اسم قصر بناه المتوكل قرب سر من رأى بموضع يسمى الماحوزة واستحدث عنده مدينة وانتقل اليها واقطع قواده بها قطائع فصارت اكبر من سر من رأى وشق اليها نهراً من دجلة على عشرة فراسخ يعرف بجبة دجلة » .

---

(١) الطبري (٣ـ١٤٣٨)

١٤ - فرع الحديد

ويشاهد على الضفة اليسرى للنهر الجعفري فرع كبير يتفرع في نقطة تقع على بعد (٣٩/٧٥٠) كيلومتراً من الصدر يسمى « نهر الحديْد » ، فيمتد هذا الفرع في الاتجاه الجنوبي الشرقي على خط مستقيم ، وبعد أن يقطع حوالي واحد وعشرين كيلومتراً في هذا الاتجاه ينحرف بزاوية قائمة فيسير غرباً على خط مستقيم ايضاً ، وبعد ان يقطع مسافة احد عشر كيلومتراً تقريباً في الاتجاه الأخير ينتهي في الضفة اليسرى لنهر القاطول الكسروي في نقطة تقع امام جامع أبي دلف الذي في الجانب الأيمن لنهر القاطول ، وذلك عند بداية السور الخارجي لمدينة المتوكلية الذي يمتد بين نهر القاطول ودجلة جنوب المتوكلية .

ويكوّن هـذا الفرع شبه مثلث قائم الزاوية شرقي النهر الجعفري تبلغ مساحته حوالي مائة كيلومتر مربع (٤٠٫٠٠٠) مشارة . ولا شك ان وراء تهيئة مثل هذه الساحة الواسعة واحاطتها بمياه النهر من كل اطرافها مشروع جسيم كان ينوي المتوكل انشاءه فيها ، والأرجح ان المتوكل كان ينوي انشاء حلبة سباق فيها على ان يكون تل البنات الموقع المرتفع الذي يشرف منه عليها .

ويلاحظ ان الفرع المذكور هو أشبه بالسور منه الى النهر سيما إذا ما لاحظنا الزاوية القائمة التي يشكلها في انحرافه وهي طريقة غير مألوفة في انشاء الأنهر ، لذلك فقد اعتبرته اكثر الخرائط سوراً أو جداراً .

وتشاهد على الضفة الشرقية للقاطول الكسروي عند نهاية الفرع المذكور آثار بنايتين الأولى تبعد حوالي خمسين متراً من الضفة ويخترقها فرع الحديد فيسير من وسطها قبل ان ينتهي الى القاطول والثانية تقع على حافة القاطول تماماً . ونعتقد ان لهاتين البنايتين صلة بالسور الخارجي لمدينة المتوكلية وهو السور الواقع على الضفة اليمنى من القاطول حيث يبدأ هذا السور من امام البنايتين المذكورتين . ومن المحتمل ان نهر الحديد كان يعبر فوق القاطول في هذا المكان فيموّن الخندق الذي يسير بموازاة السور شمالا بالمياه ثم ينتهي في دجلة عند نهاية السور ، بدليل ان قعر الحديد يعلو عن قعر القاطول عند ملتقاه بالقاطول حوالي خمسة امتار مما يدل على انه كانت هناك عبارة على القاطول تعبر عليها مياه فرع الحديد فتجري في الخندق الذي وراء السور ثم تصب في دجلة عند نهاية السور .

أما الغاية التي أنشيء من اجلها فرع الحديد فنميل الى الاعتقاد بأن أهم ما كان يستهدفه هذا الفرع هو تموين حلبة السباق الذي كان ينوي المتوكل انشاءها هناك بالمياه على ان يكون الفرع في الوقت نفسه حداً لساحة السباق من جهة الشرق ، ولعل تسمية الحديد التي يراد بها الاشارة الى الحدود ترجع الى عهد انشاء الفرع وقد بقي الفرع محافظاً على تسميته حتى الآن ، ويلاحظ ان تل البنات يقع امام الزاوية القائمة لمثلث الساحة تماماً مما يدل على انه أنشيء لغرض التفرج من فوقه على ساحة السباق التي كانت النية متجهة الى جعلها على شكل مثلث أو مربع . لذلك نجد أن

أبعد مسافة على عرض الساحة التي بين النهر الجعفري وفرع الحديد تقع بين تل البنات الذي على النهر الجعفري وبين الزاوية التي على فرع الحديد حيث تبلغ هذه المسافة حوالي أحد عشر كيلومتراً .

وهناك آثار بنايتين على مجرى الحديد من المحتمل أنهما ناظمان قاطعيان كان يراد بهما حجز المياه ورفع مستواها لتحويلها الى الأراضي المجاورة ، ذلك مما يدل على أنه كانت النية متجهة الى انشاء بساتين وحدائق في السهل المجاور الى فرع نهر الحديد . أما موقعا البنايتين فان الأولى تقع عند الكيلومتر (٢٥٠/١٤) من صدر مجرى الحديد والثانية عند الكيلومتر (٧٥٠/٢٥) من صدره .

ونظراً لأن فرع الحديد يسير في أراضي سهلة فان الحفريات الترابية كانت قليلة العمق فيه بحيث أصبح قعره الآن مساوياً تقريباً الى منسوب الأراضي المجاورة مما يجعل تتبع آثار كتفيه صعباً في بعض المواقع . وفي مناسيب قعر الحديد هبوط كبير حيث يبلغ الهبوط في المسافة التي بين الصدر والذنائب عند القاطول وهي ٣٤ كيلومتراً حوالي ١٥ متراً .

ويشاهد على الضفة اليمنى لنهر الجعفري فرع آخر يتفرع من أمام مأخذ فرع الحديد تماماً فيمتد هـذا الفرع غرباً في حاوي البوعجيل حتى ينتهي في دجلة . وتوجد آثار بناء في صدر هذا الفرع مما يدل على أنه كان هناك ناظم لضبط المياه التي تدخل اليه ؛ كما توجد آثار بناء مقابل هذا الناظم على الضفة اليسرى لمجرى النهر الجعفري يسمى مكانه « تل رحيات » ،

ويقع هذا البناء في الزاوية التي في نقطة تفرع نهر الحديد ، ولعله كان قد أنشيء لتحقيق نفس الغاية التي كان يرمي اليها البناء الذي أنشيء في ذنائب فرع الحديد أمام بداية السور الخارجي لمدينة المتوكلية .

وهكذا فقد أصبحت مدينة المتوكلية ومشتملاتها — وهي المدينة التي كان يحلم المتوكل بانشائها — محاطة بمياه وأسوار خارجية من كل أطرافها . فكان نهر دجلة يحاذيها من جهة الغرب ، أما من الجهات الأخرى فان فرع البوعجيل الذي يأخذ المياه من النهر الجعفري ويصب في دجلة كان يؤلف الحد الشمالي بين دجلة والنهر الجعفري ثم يليه فرع الحديد الذي يبدأ من النهر الجعفري وينتهي في دجلة فيحد المدينة من الشرق والجنوب .

١٥ـ الفروع الاخرى

وكانت هناك فروع أخرى تأخذ المياه من الضفة اليمنى للنهر الجعفري فتسقي الحويان (جمع حاوى وهو السهل الرسوبي على ضفة النهر) التي على الضفة الشرقية لنهر دجلة [١] . ونميل الى الاعتقاد بأن هذه الفروع فتحها زراع هذه المنطقة بعد أن هجر نهر المتوكل وصار يستغل في موسم الفيضان

---

(١) تمتد هذه الحويان من الشمال الى الجنوب على طول النهر الجعفري بينه وبين دجلة واسماؤها الحالية بالتسلسل من الشمال الى الجنوب هي : حاوي البو علي ، حاوي سمرة ، حاوي الربيضة ، حاوي الحرجة ، حاوي راس السوق ، حاوي تكريت ، حاوي البوعجيل .

لارواء أراضيهم الواطئة التي بين نهر دجلة والنهر الجعفري ، واليك أسماء هذه الفروع بالتسلسل من الشمال الى الجنوب :

اسم الفرع	مكان تفرعه من النهر الجعفري
نهر سمرة	عند الكيلومتر ٢٢ر٤٠٠ من الصدر
نهر الربيضة	« « ٢٤ر٥٠٠ «
نهر الخرجة	« « ٣٠ر٥٠٠ «
نهر البوعجيل	« « ٣٩ر٧٥٠ «
نهر الايشان	« « ٥٩ر٣٠٠ «

(راجع خارطة النهر الجعفري)

١٦- التلول الاثرية على النهر

ويظهر أن أكثر القرى على النهر الجعفري كانت تقع على الضفة اليمنى ، ولعل السبب في ذلك يرجع الى أن الأراضي التي على تلك الضفة بين النهر الجعفري ونهر دجلة منخفضة مما يساعد على اروائها سيحاً من النهر الجعفري . وقد حاولنا أن نتحرى أماكن القرى التي ذكرها الطبري والتي عين مواقعها قرب صدر النهر الجعفري وهي جبلتا والخصاصة العليا والسفلى وكرمى (راجع البحث الذي تقدم في صفحة ٤٦) ولكن لم نعثر على امكنة هناك تسمى بهذه الأسماء أو ما يقرب منها . وقد رأينا أن ندرج أسماء الأماكن الأثرية التي عثرنا عليها في دراستنا للمنطقة التي يمر منها

النهر الجعفري معينين مواقعها بالنسبة الى النهر وهذه الأماكن هي :

اسم التل	الضفة التي يقع عليها بالنسبة الى نهر الجعفري	موقع التل حسب المسافة من صدر النهر
تل هرّو	الضفة اليمنى	الكيلومتر ٦/٥٠٠
تل الربيضة	« «	« ١١/٥٠٠
تلا الرمامين	« «	« ١٦/٢٥٠
تل خزامية	« «	« ١٦/٥٠٠
تل الناعور	« «	« ٢١/٢٥٠
تل علوشه	« «	« ٢٤/٢٥٠
تل السوق	« «	« ٣١/٠٠٠
تل كنيسة	« «	« ٣٣/٧٥٠
تل رحيات	الضفة اليسرى	« ٣٩/٧٥٠
تل هطرة	الضفة اليمنى	« ٤١/٥٠٠
تل البنات	وسط النهر	« ٥٦/٠٠٠

(راجع خارطة النهر الجعفري)

١٧- حالة النهر وناظم مصرف الوشاش

أما حالة جدول المتوكل فهي جيدة على العموم وذلك عدا التخريبات التي أحدثتها السيول في القسم الأعلى من مجراه — وهي السيول المنحدرة

من أعالي سلسلة جبل حمرين في جهة الشرق — حيث تقطع هذه السيول الجدول في عدة أماكن ثم تنصب في دجلة في الجانب الغربي للجدول . وأول هذه الأودية من الشمال هو وادي بزيخة الذي يقطع جدول المتوكل عند الكيلومتر (١/٦٠٠) والكيلومتر (١/٨٠٠) من صدره ثم يليه وادي الوشـاش الذي يقطع الجدول عند الكيلومتر ٥/٦٠٠ ووادي الطويل عند الكيلومتر (١٣/٥٠٠) ووادي للويلح عند الكيلومتر (١٨/٥٠٠) ووادي المجتلة عند الكيلومتر (٢٣) ووادي الشرجة عند الكيلومتر (٢٦/٥٠٠) . وكانت مياه هـذه الأودية تنصب في الجدول من ضفته الشرقية ، أما المياه الزائدة التي تدخل الى الجدول في موسم الفيضان فكانت هناك مصارف (escapes) تتفرع من الضفة الغربية للجدول فتأخذها الى نهر دجلة الذي يسير بموازاة الجدول في تلك الجهة .

وتوجد في النقطة التي يتقاطع فيها الجدول مع وادي الوشاش آثار بناء قديم على الضفة اليمنى من الجدول (راجع خارطة تفاصيل تفرعات صدر النهر الجعفري) يرجح أنه كان ناظماً في صدر المصرف الذي يصرف المياه الزائدة في الجدول الى نهر دجلة . ويستدل من آثار البناء المتبقي أن أرضية الناظم مبنية من خرسانة الحصى والنورة والرماد بسمك ١٣ سنتيمتراً تقريباً ، أما جناحا الناظم من الجهتين فمبنيان بالآجر

بحجم (٣٠ × ٣٠ × ١٠ سنتيمتراً) . ويبلغ القسم المتبقي من سمك بناء الجناح الأيسر للناظم حوالي ٩٫٥ متراً ومن ارتفاع الجناح فوق الأرضية حوالي ١٫١٠ أمتار . أما منسوب سطح الأرضية فيبلغ ٩٩٫٨٠ متراً فوق سطح البحر والأرجح أن المنسوب المذكور كان منسوب قعر الجدول نفسه في هذا المكان .

ويلاحظ أن قسماً من الضفة اليمنى للجدول قد جرفته مياه نهر دجلة مسافة نصف كيلومتر تقريباً وذلك بين الكيلومتر (٨٠٠/—) والكيلومتر (١/٣٥٠) من صدر الجدول ، ويظهر أن هذا التآكل حصل بسبب تحول مجرى دجلة الى قرب الضفة الغربية للجدول ، أما الآن فقد رجع النهر الى مجراه القديم غرباً .

١٨- عبارة النهر الجعفرى على القاطول الكسروى

ولعل أهم ما كان من منشئات بنائية على النهر الجعفري العبارة التي أنشئت على القاطول عند قنطرة الرصاصي لعبور مجرى النهر من فوق القاطول . فقد ذهب الكتاب والمؤرخون والمهندسون مذاهب شتى في أمر هذا البناء ، فمنهم من قال انه قنطرة عبور ، ومنهم من تصور انه ناظم أنشيء في صدر النهروان ، وهناك من ظنه سداً حاجزاً لرفع مناسيب المياه في النهر (ومن جملة الفريق الأخير السير ويليم ويلكوكس الذي لم يتح له دراسة هذا المشروع دراسة عملية) . أما حقيقة الأمر فهي أن البناء

كان بالأصل قنطرة عبور ثم حوّر في زمن المتوكل ليكون عبارة (Aqueduct) يمرّ فيها مياه النهر الجعفري من فوق مجرى القاطول، وقد أضاف الى القنطرة الأصلية ما يلزم من بناء لتحقيق هذه الغاية . وسأبحث الآن في أمر هذا البناء من الناحية الفنية وذلك في ضوء المعلومات التي جمعتها عن تفاصيل هذه القنطرة ومناسيبها . ولنبحث أولاً في البناء القديم الذي كان يحقق غرض العبور على مجرى القاطول في هذا المكان ، وهو البناء الذي أنشيء في نفس الوقت الذي أنشيء فيه القاطول الكسروي على عهد كسرى انوشروان .

أ - قنطرة العبور القديمة

قلنا بمناسبة ذكر القاطول الكسروي ان القاطول المذكور يسمى نهر الرصاصي ايضاً . أما منشأ هذه التسمية الأخيرة فيرجع على الأرجح الى استعمال الرصاص في بناء هذه القنطرة التي سميت باسم « قنطرة الرصاصي » للسبب نفسه . أما كيفية استعمال الرصاص في البناء فأمر اختلف فيه العلماء والمؤرخون ، فمنهم من قال ان الرصاص استعمل ليحل محل مونة النورة أو مونة الخرسانة في الفجوات التي بين صفوف الآجر أو الحجر وذلك بعد تذويب الرصاص على النار ، ومنهم من تصور أن هناك قيوداً حديدية كانت تربط الاحجار بعضها ببعض ثم يصب الرصاص بينها ، ويلاحظ أن المؤرخين والكتاب الافرنج نقلوا الواحد عن الآخر هذه الآراء على الرغم من بعدها عن الحقيقة كل البعد . أما حقيقة الأمر

فهي أن القنطرة الأصلية التي أنشئت على عهد كسرى انوشروان بنيت بالأحجار النارية السوداء المعروفة بالأحجار البركانية وهذه ولا شك نقلت من أماكن جبلية والأرجح جبال ايران ، ومن خواص هذا النوع من الحجر الثقل في الوزن والمقاومة في الماء . والظاهر أن قطعاً كبيرة من هذه الأحجار نحتت على شكل مستطيل ولبست الواحدة بالأخرى وذلك بقلع نصف سمك الجانبين من كل قطعة لبعد معين ، أي بقلع نصف سمك القسم الأعلى من الجانب الواحد ونصف سمك القسم الأسفل من الجانب الآخر ، وتلبيس الحجارة الواحدة بالأخرى من كل جانب على الشكل المبين في خارطة قنطرة الرصاصي وعبارة النهر الجعفري . وقد ثقب كل جانب في وسط القسم الذي قلع نصف سمكه ، وبعد تلبيس الحجر الواحدة بالأخرى ملئت الثقوب الراكبة الواحد على الآخر بالرصاص بحيث ربط الجانب الأعلى من كل قطعة بالجانب الأسفل من القطعة الاخرى أو العكس بالعكس فأصبحت القطعتان متماسكتين مما يجعل فصل الواحدة عن الاخرى متعذراً . وكذلك ثقبت كل حجارة من وسطها ليتصل الثقب الوسطي بالثقوب التي فوقه وتحته وهكذا حتى تم البناء كله على هذا الشكل . هذا مع العلم بأن هذا الترتيب كان مضافاً الى استعمال المونة الاعتيادية بين الاحجار .

وللرصاص خاصية لا توجد في بقية المعادن فهو ثقيل ولا يتصدى ويمتاز بخصائص القوة الضاغطة (Compression) وقد استعمله

الأقدمون في منشئات الري منذ أقدم الأزمنة . فقد ذكر هيرودونس وديودورس الصقلي أن سميراميس لما قامت بانشاء جسر ثابت على نهر الفرات في بابل مكنته بالحديد والرصاص ، ذلك مما يدل على أن طريقة استعمال الرصاص في مثل هذه المنشئات ترجع الى عهود قديمة جداً وأن الفرس اقتبسوها من أسلافهم القدماء [١] .

أما الرصاص الذي استعمل في بناء القنطرة التي نحن بصددها فلم يبق له أي أثر حيث حفر الأهلون الأنقاض الى حد الأساسات وكسروا قطع الأحجار لاستخراج الرصاص واستعماله أو بيعه ، لذلك فلا نجد من الحجر الناري إلا قطعاً صغيرة من بقايا القطع الأصلية التي كسرها الأهلون لاستخراج الرصاص من جوف ثقوبها ، الأمر الذي جعل الوقوف على حجم الثقوب الأصلية متعذراً . والأرجح أن الثقوب كانت واسعة حيث أن الغاية من انشائها املاؤها بأكبر كمية ممكنة من الرصاص للاستفادة من ثقلها في ترسيخ البناء وتأمين مقاومته للضغوط التحتية .

وكان للفرس خبرة في استعمال الأحجار في مشروعاتهم الانشائية الضخمة ، فهذا مشروع السد الحجري على نهر العظيم والسد الحجري على نهر ديالى في جبل حمرين وأمثالها من مشاريع الري القديمة في العراق تدلنا على خبرتهم واتقانهم بناء الأحجار . ولا عجب فان الذين قاموا بهذه المشاريع

---

(١) حول هذا الجسر راجع كتاب « وادي الفرات » للمؤلف نفسه الجزء الثاني ص ١٤ .

جبليون تتوفر في جبالهم الأحجار على مختلف أنواعها ، وهي المادة الأساسية لمنشئاتهم الكبيرة ومشروعاتهم الضخمة .

ونلاحظ من الآثار المتبقية أن بناية القنطرة الأصلية كانت تتألف من ثلاث دعامات وان مجرى النهر كان يمر من تحت القنطرة بفتحتين معقودتين بطاقين ضخمين كل فتحة بعرض حوالي عشرة أمتار . ويبلغ مجموع طول هذا البناء الذي يشتمل على الفتحتين والثلاث دعامات تسعة وعشرين متراً ، وقد قلع هذا البناء كله من أساسه لاستخراج الرصاص من أحجاره . وتتفق هذه الابعاد مع سعة الجدول الذي يبلغ عرضه خمسة وعشرين متراً تقريباً في هذا المكان . أما قعر الجدول في مكان القنطرة فمنسوبه الحالي يبلغ ٧٧ر٤٠ متراً فوق سطح البحر ، ولعل المنسوب الأصلي للقعر كان اوطأ من ذلك بما لا يقل عن متر ونصف متر ، لذلك فاذا اعتبرنا أن منسوب القعر كان بالأصل ٧٦ متراً فمن المحتمل أن مستوى سطح القنطرة كان ٨١ متراً باعتبار أن عمق الماء يبلغ ٢ر٥٠ متراً أو ثلاثة أمتار وارتفاع الطاق مترين .

هذا هو قسم البناء القديم ، أي قنطرة العبور الأصلية التي أنشئت على عهد كسرى انوشروان ، وقد أزيل كله لاستخراج الرصاص الذي كان فيه كما أسلفنا . أما التلان المرتفعان على رقبتي القنطرة والمعروفان بتلي قنطرة الرصاصي فالأرجح أنهما أنشئا هناك في نفس الوقت الذي أنشئت فيه القنطرة الأصلية للدلالة على وجود جسر العبور في هذا المكان أو لعلهما

كانا نصباً تذكارياً على رقبتي القنطرة جرياً على العادة المتبعة في انشاء مثل هذه الأعمال العامة .

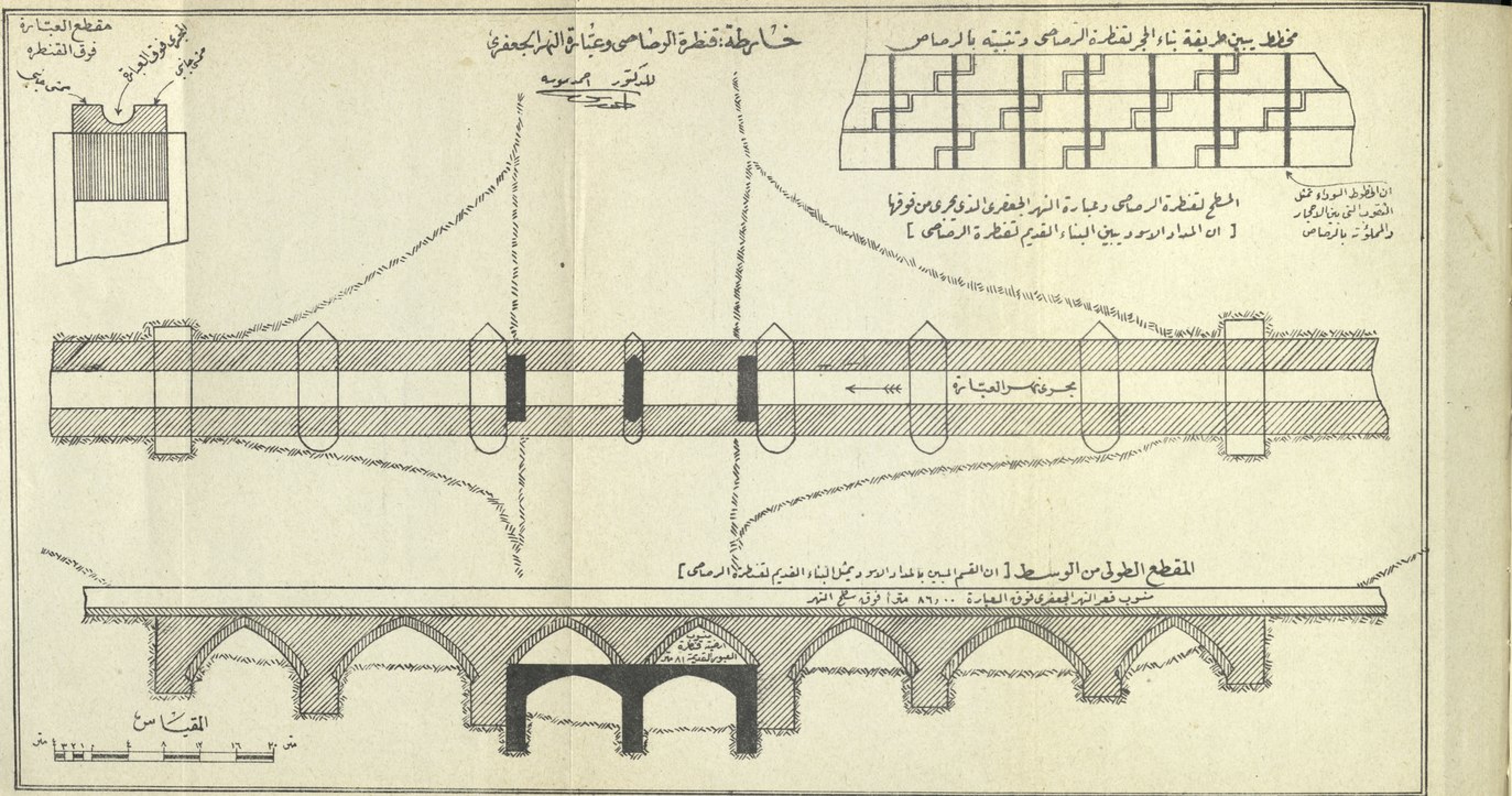
ب - عبارة النهر الجعفري فوق القنطرة

أما البناء الاضافي الذي أقيم في زمن المتوكل لتحوير قنطرة العبور الى عبارة تعبر فيها مياه النهر من فوق مجرى القاطول فقد أنشيء بالآجر ومونة النورة والرماد . ولدينا أدلة كافية على أن هذا البناء الاضافي أنشيء في الوقت الذي أنشيء فيه النهر الجعفري حيث نجد أن ناظم المصرف الذي أنشيء في صدر النهر أمام وادي الوشاش لتصريف المياه الزائدة الى دجلة مبني من نفس الآجر ونفس المونة حتى ليخال لك أن بناء هذا الناظم هو نفس بناء العبارة على القاطول لولا تغير المكان الذي يقع فيه . ونستدل من آثار هذا البناء الاضافي ومن مناسيب قعر نهر الجعفري الذي يعبر من فوق مجرى القاطول على أن مستوى سطح العبارة أي منسوب قعر النهر الذي يمر فيها كان يعلو عن سطح القنطرة الاصلية خمسة أمتار على الاقل ، الأمر الذي حدا بمهندسي المتوكل أن يبنوا بناء جديداً فوق أعمدة القنطرة القديمة وطاقين جديدين فوق طاقي القنطرة الاصلية لابلاغ العبارة الى المنسوب المطلوب . وتدل الآثار الموجودة على أن البناء مدد من جانبي القنطرة لوصل الجدول برقبتي العبارة على ضفتي مجرى القاطول حتى بلغ مجموع طول العبارة حوالي ١٢٠ متراً ، فقد مدد

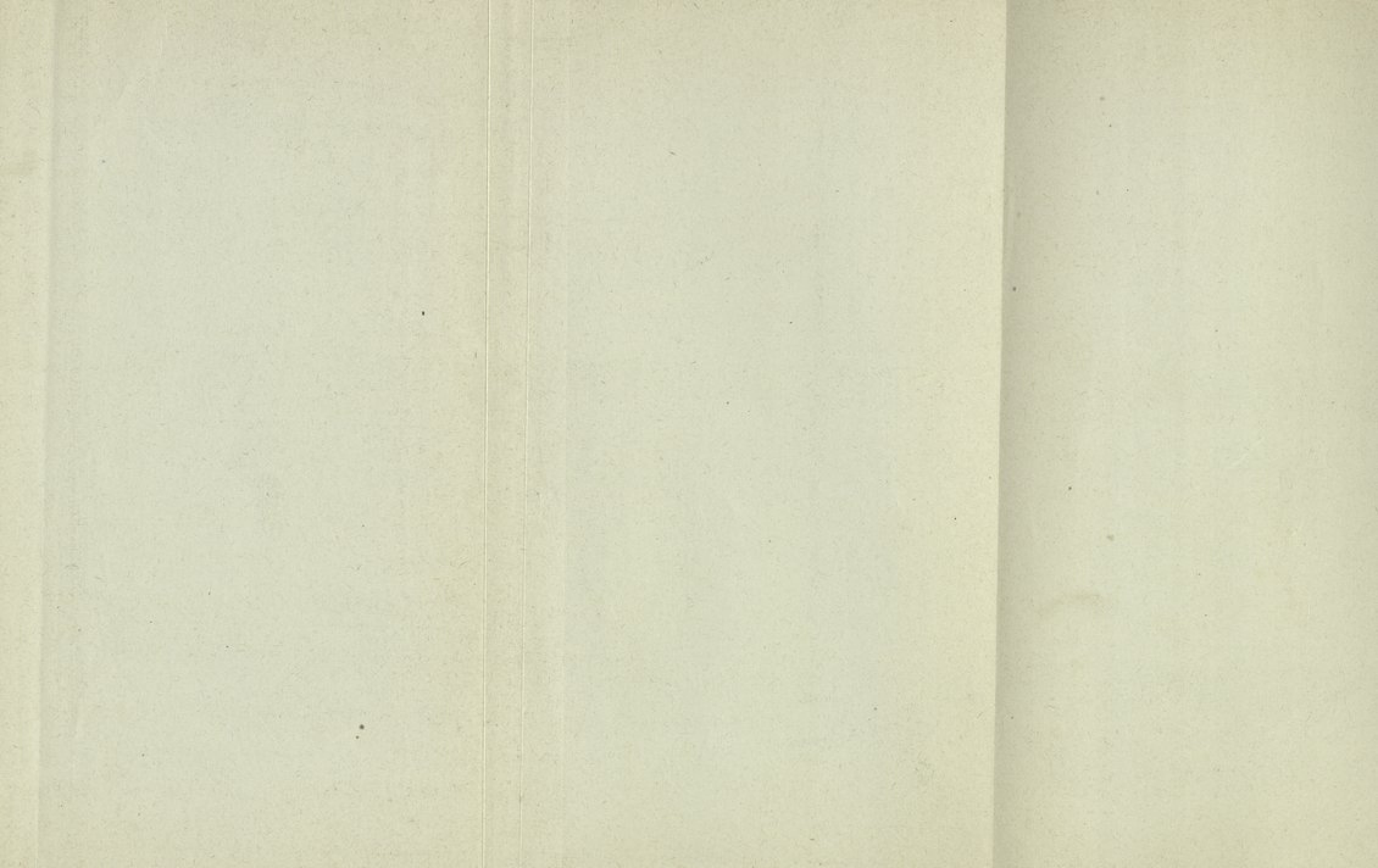
البناء من الجانب الغربي زهاء (٥٢٫٥) متراً ومن الجانب الشرقي (٣٨٫٥) متراً . وتدل آثار الدعامات التي لا يزال بعض أساسها ظاهراً على أن البناء الاضافي في الجانب الغربي يتألف من ثلاث فتحات وأربع دعامات منها دعامة واحدة ملاصقة للدعامة الغربية للقنطرة الاصـلية لحمل الطوق فوق الفتحات الجديدة وأن البناء في الجانب الشرقي يتكون من فتحتين وثلاث دعامات منها دعامة واحدة ملاصقة للدعامة الشرقية للقنطرة الاصلية على نفس الترتيب الذي في الجانب الغربي (راجع خارطة قنطرة الرصـاصي وعبارة النهر الجعفري) .

وقـد بنيت العبارة على نمط العبارات التي ترجع هندستها الى العهد العربي فهي مؤلفة من طوق راسية (Pointed arches) مبنية بالآجر والنورة ، وقد ألف العرب انشاء مثل هذه العبارات على الانهر ويمكن مشاهدة أحسن نموذج لها قرب محطة سميكة حيث توجد عبارة من هذا النمط كان يجري فيها أحد فروع الدجيل التي تعود الى العهد العربي من فوق أحد الأودية في تلك المنطقة . وهـذه العبارة تسمى قنطرة جويت وتقع على مسافة قريبة من الامام محمد أبي الحسن وهي لا تزال عامرة ولم يندرس منها إلا جوانب الجدول الذي فوقها .

ونميل الى الاعتقاد بأن العبارة أنشئت ليس لتعبير مياه النهر الجعفري الى الضفة اليمنى من مجرى القاطول فحسب وانما أنشئت بشكل يؤمن استعمالها كجسر لعبور الاهلين والحيوانات ايضاً ، ونعتقد أن النهر الجعفري



خارطة: قنطرة الرصاصي وعبارة النهر الجعفري
للدكتور احمد سوسه
مخطط يبين طريقة بناء الجر لقنطرة الرصاصي وتثبيته بالرصاص
ان الخطوط السوداء تمثل الثقوب التي بين الاحجار والمملوءة بالرصاص
المسطح لقنطرة الرصاصي وعبارة النهر الجعفري الذي يجري من فوقها
[ان السواد الاسود يبين البناء القديم لقنطرة الرصاصي]
مقطع العبارة فوق القنطرة
مجرى فوق العبارة
مبنى جانبي
مبنى مبيّض
مجرى نهر العبارة
المقطع الطولي من الوسط [ان القسم المبين بالسواد الاسود يمثل البناء القديم لقنطرة الرصاصي]
منسوب قعر النهر الجعفري فوق العبارة ٨٦،٠٠ متراً فوق سطح البحر
منسوب
العبور القديمة ٨١ متر
المقياس
متر ٤ ٣ ٢ ١ ٠ ٤ ٨ ١٢ ١٦ ٢٠ متر



كان يسير في وسط العبارة ، وكان ممران على ضفتي الجدول لعبور الناس والحيوانات (راجع خارطة قنطرة الرصاصي وعبارة النهر الجعفري) . والارجح أن العبارة بقيت على وضعها لاستعمالها كجسر عبور فقط وذلك بعد أن هجرت المتوكلية وهجر النهر الجعفري معها .

هذا فيما يختص بعبارة الرصاصي ، أما العبارة الاخرى التي كان يعبر فيها الفرع الشمالي للنهر الجعفري من فوق القاطول فتقع على بعد حوالي ١٢٠ متراً شمالا ، ولما كانت هذه العبارة الشمالية صغيرة الحجم بالنسبة الى عبارة قنطرة الرصاصي فلم يبق من آثارها سوى اطلال بناء جناحها الايمن من جهة حوض تجمع المياه الذي يقع أمامها تماماً على الجانب الايمن من القاطول .

١٩- بركة القصر الجعفري

والدليل على أن المتوكل قد أعار قصره الخاص وهو القصر الجعفري عناية خاصة انه جعل النهر الذي حفره الى المتوكلية ينتهي في ذلك القصر وذلك عند البركة التي أنشأها أمامه . ويمكن تتبع آثار النهر في المسافة التي تقع بين العبارة والبركة (راجع خارطة المتوكلية) ، وهذا يبدأ في الحوض الذي في الجانب الايمن للقاطول الكسروي — وهو الحوض الذي أنشىء لتتجمع فيه مياه النهر وذلك بعد عبورها من فوق القاطول على العبارتين (عبارة قنطرة الرصاصي والعبارة الثانية التي في شمالها) —

ثم يسير في الاتجاه الغربي بمحاذاة القاطول بين ضفة القاطول اليمنى وسور المتوكلية مسافة ٥٥٠ متراً ، وبعد أن يدخل المتوكلية مخترقاً سورها من الزاوية الشمالية المجاورة الى ضفة القاطول يعود فيخرج من الضلع المقابل في الزاوية نفسها ثم يتجه غرباً نحو البركة الواقعة أمام القصر من جهته الشرقية فيصب فيها . ويتشعب من الضفة اليسرى للنهر في المسافة التي بين الحوض والبركة عدة فروع تخترق سور المتوكلية وتتغلغل داخلها من عدة نواحي .

وتقع البركة في حفرة عميقة محاطة بأطلال القصر الجعفري التي تمتد الى ضفة نهر دجلة من الغرب ، أما شكلها فمستطيل ويبلغ طولها زهاء ١٢٠ متراً وعرضها حوالي ٨٠ متراً أي بمساحة عشرة آلاف متر مربع تقريباً . ويبلغ منسوب قعر البركة الاصلي ٨١ متراً فوق سطح البحر ، أما المنسوب الحالي فيبلغ ٨٢٫٤٦ متراً أي حوالي متر ونصف أعلى من منسوب القعر الاصلي . ويتكون عمق هذه الاتربة السطحية من الغرين والدهلة مما يدل على أنها تجمعت في قعر البركة من الترسبات التي خلفتها فيها مياه الفيضان المشحونة بالطمي . ولصرف المياه الزائدة التي تتجمع في البركة أنشئت ثلاثة كهاريز تخرج من قعر البركة من عند ضلعها الجنوبي وهذه تتوحد بعد مسافة قليلة في كهريز واحد واسع يصب في دجلة (راجع خارطة مدينة المتوكلية) .

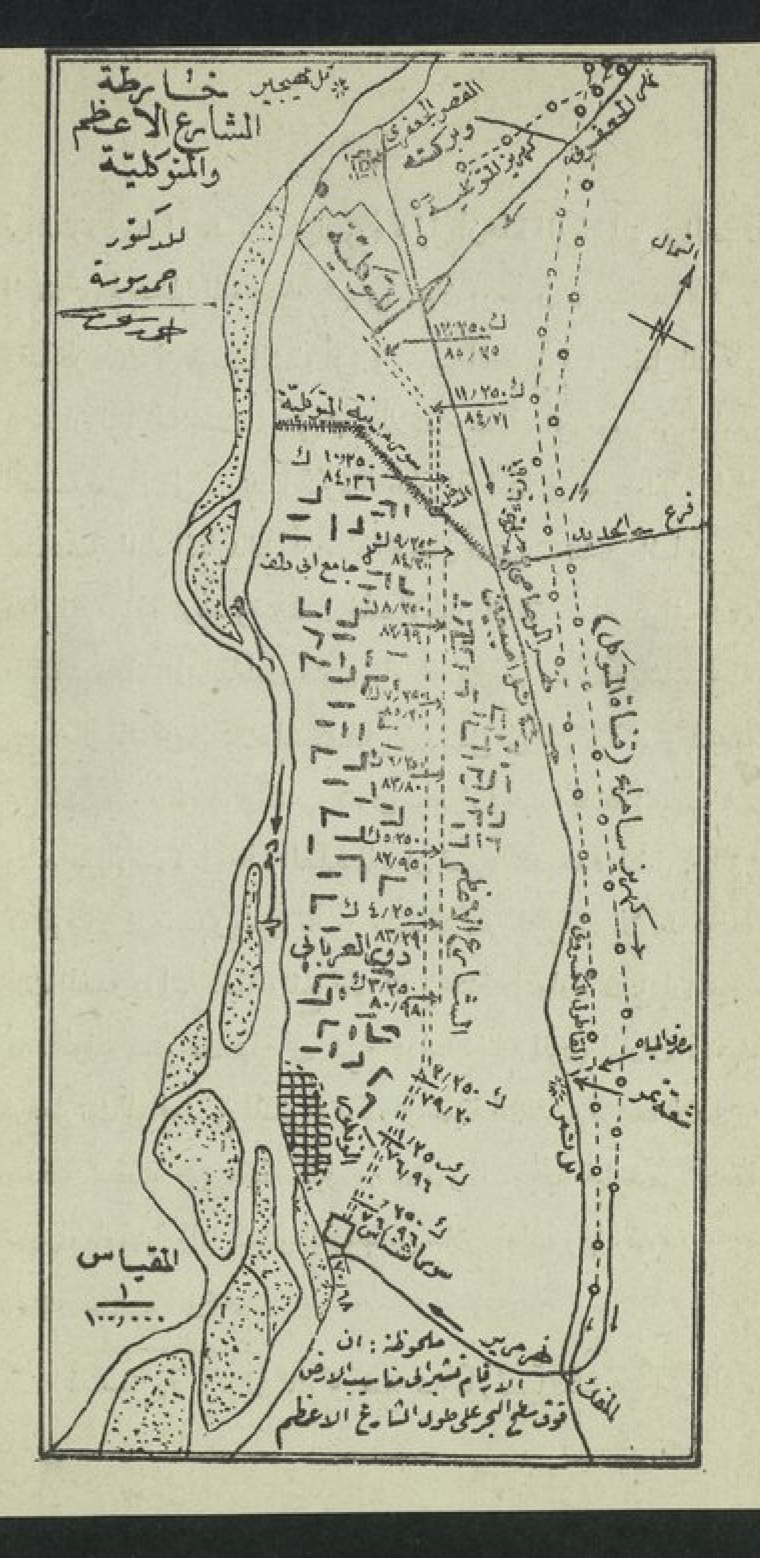
ويظن البعض أن البركة هذه هي البركة المشهورة التي وصفها البحتري

في أشعاره ، وهذا أبعد ما يمكن تصوره بدليل أن هذه البركة التي في القصر الجعفري لم يدخلها الماء في غير شهري شعبان ورمضان من سنة ٢٤٧ هـ . وقد كان ذلك في موسم الشتاء أي في موسم الفيضان قبيل مقتل المتوكل وهجران المتوكلية بحيث لم يكن مجال للانتفاع بها في أي موسم من مواسم الصيف بعد انشائها . وتدلنا كثرة الاطيان المتراكمة في قعرها انها أهملت بعد دخول المياه اليها بدليل أن مياه الفيضان استمرت تدخل اليها من دون أية مراقبة أو سيطرة فخلفت هذه الاطيان الهائلة . أما بركة البحتري فقد عينا مكانها على القاطول جنوبي سامراء وهي من دون أي شك جزء من أعمال المتوكل في تلك المنطقة قبل ان ينتقل الى المتوكلية ، وقد بحثنا عن ذلك بصورة مفصلة في كتاب « ري سامراء في عهد الخلافة العباسية » .

ولابد من الاشارة في هذا الصدد الى ان تعيين مثل هذه الاماكن التي لا تقوم إلا على مصدر معين يغذيها بالمياه لا يمكن ان يتم إلا بعد دراسة ذلك المصدر دراسة دقيقة وتتبع تطوراته في مختلف ادواره ، أي ان تعيين هذه المواقع يستوجب قبل كل شيء دراسة نظام الري الممارس في عهد ازدهار تلك المواقع لكي يتسنى الوقوف على حقيقة الامر من مرجعه الاصلي . وهكذا سنقف على حقيقة كثير من الامور التاريخية فيما يختص بمنطقة سامراء العباسية واماكنها ومشاريعها من خلال دراسة ريها القديم .

٢٠ ـ الشارع الاعظم

لقد سبق وذكرنا ان المتوكل فتح شارعاً رئيسياً يمتد بين آخر البناء



خارطة
الشارع الأعظم
والمتوكلية
للدكتور
أحمد سوسة
القصر الجعفري وبركته
مدينة المتوكلية
الشمال
فرع سكة الحديد
جامع ابي دلف
المقياس
١
١٠٠,٠٠٠
ملحوظة: ان
الارقام تشير الى مناسيب الارض
فوق سطح البحر على طول الشارع الاعظم

في الحدود الشمالية لسر من رأى وبين مدينة المتوكلية الجديدة ، وقد سمي هذا الشارع باسم « الشارع الأعظم » . وأهم ما يلفت النظر في أمر هذا الشارع سعة عرضه واستقامة تخطيطه مما يدل على عظمة مشروع مدينة المتوكل الجديدة والابداع في تنسيقها وتخطيطها . وقد كتب اليعقوبي في هذا الصدد قال : « ومد (المتوكل) الشارع الأعظم من دار اشناس التي بالكرخ وهي التي صارت للفتح بن خاقان مقدار ثلثة فراسخ الى قصوره ، وجعل دون قصوره ثلثة أبواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه ، واقطع الناس يمنة الشارع الأعظم ويسرته وجعل عرض الشارع الأعظم مائتي ذراع وقدر أن يحفر في جنبي الشارع نهرين يجري فيهما الماء من النهر الكبير الذي يحفره » .

ويمكن تتبع آثار هذا الشارع بين سور اشناس والمتوكلية إذ نجده أطلال الأبنية القديمة من الجانبين ، أما السواقي الجانبية التي كانت تستمد مياهها من النهر الجعفري والتي أشار اليها اليعقوبي فتشاهد آثارها على جانبي الشارع أيضاً في معظم أقسامه . ويبدأ الشارع من سور أشناس بعرض حوالي خمسين متراً فيسير مسافة زهاء كيلومترين شمالا ثم ينعطف نحو الغرب قليلا فيسير من هنا في اتجاه مستقيم بين نهر دجلة ونهر القاطول الكسروي نحو المتوكلية ، وبعد أن يسير حوالي الكيلومتر في هذا الاتجاه يتضاعف عرضه فيصبح مائة متر ويستمر في نفس الاتجاه حتى إذاما قطع زهاء ستة كيلومترات ونصف اعترضه السور الخارجي لمدينة المتوكلية ،

وهو السور الذي يمتد عرضاً بين نهر القاطول الكسروي ونهر دجلة [١] .
وهنا نجد آثار بناء الابواب الثلاثة التي وصفها اليعقوبي بقوله « انها أبواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه » . وبعد أن يجتاز الشارع هذا السور يعود فيصبح عرضه خمسين متراً فيسير بموازاة ضفة نهر القاطول الكسروي مسافة كيلو متر ونصف ثم ينحرف غرباً حتى ينتهي عندالزاوية الجنوبية الشرقية لسور مدينة المتوكلية حيث يقع في هذه الزاوية المدخل الرئيسي لأبنية المدينة . ويبلغ مجموع طول الشارع بين سور أشناس وسور المدينة الداخلي حوالي اثني عشر كيلومتراً ونصف الكيلومتر (راجع خارطة الشارع الأعظم وخارطة مدينة المتوكلية) .

ويشاهد على يسار الشارع قبل دخوله السور الخارجي لمدينة المتوكلية بقليل بقايا جامع ومئذنة يعرفان باسم « جامع أبي دلف » . ويعتقد أن تاريخ انشاء هذا الجامع يعود الى عهد المتوكل إلا أنه ليس هناك ما يثبت صحة هذا الظن أو خطأه ، على أنه من المعلوم بأن المنطقة التي يقع فيها هذا الجامع كانت خالية من البناء في زمن المعتصم وان مكان الجامع يقع على بعد عدة كيلومترات من شمال حدود آخر البناء الذي في الدور (دور العرباني) .

وقد دلت أعمال المسح على طول الشارع أن الأراضي التي يقع فيها الشارع تنحدر من الشمال الى الجنوب بهبوط مستمر مما يساعد على جريان المياه

---

(١) راجع البحث عن هذا السور في الصفحتين ٢٩ و ٣٠ .

في السواقي التي على جانبي الشارع من الشمال الى الجنوب . وقد دلت هذه الأعمال على أن منسوب قعر الحوض الذي على الجانب الأيمن من القاطول الكسروي ، وهو الحوض الذي كانت تتجمع فيه مياه النهر الجعفري ، يبلغ ٨٥ر٦٤ متراً فوق سطح البحر . أما الفرع الذي يتفرع من الحوض ويغذي السواقي فيبلغ منسوبه عند الزاوية الجنوبية الشرقية لسور المتوكلية ٨٥ر٢٥ متراً ثم يهبط المنسوب في آخر الشارع عند سور أشناس الى حوالي ٧٧ متراً ، أي أن منسوب الأراضي التي يقع فيها أول الشارع قرب سور أشناس أوطأ من منسوب قعر النهر في نهاية الشارع عند المتوكلية بحوالي ثمانية امتار ، وهذا كان يسهل جريان المياه في السواقي على جانبي الشارع حتى سور أشناس . أما المياه الزائدة في السواقي فكانت تصرف الى نهر دجلة جنوب سور أشناس .

٢١ـ فشل المشروع وعوامله

لقد اختلف المؤرخون في بحثهم عن مصير النهر الجعفري والعوامل التي أدت الى فشله فمنهم من قال إن النهر لم يتم حفره في عهد المتوكل وقد توقف العمل فيه بعد مقتله ، ومنهم من ذكر أن النهر قد تم حفره إلا أنه لخطأ ارتكب في التصميم لم يحقق الغاية المتوخاة فكان جريه ضعيفاً . وكان ياقوت من بين الذين قالوا بالرأي الأول فذكر أن المتوكل اشتق نهراً من دجلة « وقدره للدخول الى الحيّز (الماحوزة) فمات قبل أن يتمم وحاول

المنتصر تتميمه فلقصر أيامه لم يتمم ثم اختلف الأمر بعده فبطل »[١] .
وقد أيد الطبري ذلك فذكر أن المتوكل عهد أمر النفقة على النهر الى دُليل
ابن يعقوب النصراني كاتب بغا وقد بوشر العمل في شهر ذي الحجة من
سنة ٢٤٥ هـ . وكان دليل لم يزل « يعمل فيه ويحمل المال بعد المال ويقسم
عامته في الكتاب حتى قتل المتوكل فبطل النهر وأخربت الجعفرية ونقضت
ولم يتم أمر النهر »[٢] . وكذا كان رأي ابن الأثير حيث أيد توقف
حفر النهر بعد مقتل المتوكل وتفسير ذلك أنه لم يتم حفره في عهد المتوكل .
واليك نص ما كتبه ابن الأثير في هذا الصدد قال : « في هذه السنة
(سنة ٢٤٥ هـ .) أمر المتوكل ببناء الماحوزة وسماها الجعفرية واقطع القواد
واصحابه فيها وجدّ في بنائها وانفق عليها فيما قيل اكثر من الفي الف دينار وجمع
فيها القراء فقرأوا وحضرها اصحاب الملاهي فوهب اكثر من الفي الف درهم
وكان يسميها هو واصحابه المتوكلية وبنا فيها قصراً سماه لؤلؤة لم ير مثله في
علوه وحفر لها نهراً يسقي ما حولها فقتل المتوكل فبطل حفر النهر وأخربت
الجعفرية »[٣] .

ومن الذين خالفوا هذا الرأي اليعقوبي ، ومع أنه بيّن أن النهر لم يتم
حفره على الشكل المنتظر ولكنه أفاد في الوقت نفسه أن المياه جرت فيه

---

(١) راجع معجم ياقوت (مادة سامراء) .
(٢) الطبري (٣ : ١٤٣٨)
(٣) ابن الأثير الجزء السابع ص ٥٦ .

في عهد المتوكل جرياً ضعيفاً . وهذا ما كتبه بالنص قال: « قيل (للمتوكل) ان المعتصم قد كان على ان يبني مدينة في الموضع الذي يقال له الماحوزة ويحفر نهراً قد كان في النهر القديم فاعتزم على ذلك وابتدأ النظر فيه في سنة ٢٤٥ ﻫ . ووجه في حفر ذلك النهر ليكون وسط المدينة . . . . إلا أن النهر لم يتم أمره ولم يجر الماء فيه إلا جرياً ضعيفاً لم يكن له اتصال ولا استقامة على أنه قد اتفق عليه شبيهاً بألف الف دينار » .

أ- رواية ابن أبي صيبعة

ولولا مشيئة الصدف التي قادت ابن أبي صيبعة الى شرح تفاصيل قصة النهر بمناسبة ذكر اخبار يعقوب ابن اسحق الكندي لبقي أمر فشل هذا المشروع سراً مجهولا . وخلاصة القصة كما يأتي : كان يعقوب ابن اسحق الكندي عظيم القدر عند الخلفاء العباسيين الذين عاصرهم لما كان له من منزلة علمية جليلة ، وقد اشتهر في اضطلاعه بعلم الحساب والهندسة وطبائع الاعداد عدا العلوم الأخرى كالفلسفة والمنطق وعلم النجوم والطب ، ولم يكن ينافسه على الشهرة التي حازها بالنسبة الى علم الهندسة والحساب غير أبي معشر وهو جعفر بن محمد البلخي ، ولكنه لما دخل في المباراة مع الكندي فشل فاضطر الى العدول الى علم آخر غير علم الهندسة . وقد شاءت الظروف أن تفسح للانانية الشخصية المجال ان تلعب دورها فانبرى شخصان من الحساد المتطفلين هما محمد وأحمد ابنا موسى فدبرا مكيدة على

الكندي حتى غضب المتوكل عليه فضربه وأخذ محمد وأحمد كتبه بأسرها وافرداها في خزانة سميت الكندية ، كما أنهما دبرا في الوقت نفسه مكيدة على سند بن علي الذي كان اختصاصياً في علم الهندسة ايضاً فأشخصاه الى بغداد وباعداه عن المتوكل . ومكن هذا لهما ان يحتكرا الادعاء بعلم الهندسة رغم كونهما بعيدين كل البعد عن معرفة اصوله وتفرعاته . ولما قرر المتوكل حفر النهر لايصال المياه به الى مدينته الجديدة ـ المتوكلية ـ كان طبيعياً ان يتقدم الى محمد واحمد بحفره ، ولما كانا مفتقرين الى الكفاءة الفنية لانجاز مثل هذا المشروع الجسيم اسندا أمره الى أحمد بن كثير الفرغاني الذي لم يكن اوفر حظاً منهما في قابلية انجاح مثل هذا المشروع ، فأرتكبت اغلاط فنية أدت من حيث الأساس الى فشل المشروع حيث لم تدخل المياه الى النهر في غير اوقات الفيضان حين ارتفاع مناسيب مياه دجلة فقط . ولما بلغ أمر هذه الأغلاط مسمع المتوكل احضر مسند بن علي من بغداد فصارحه في أمر مكيدة محمد واحمد عليه وطلب اليه ان يجري التحري عن النهر الذي عهد أمر حفره اليهما وان يبين الخطأ الذي ارتكب فيه لكي يقوم باعدام محمد واحمد بعد الاستماع الى شهادته الفنية والتأكد من وقوع الخطأ الذي سبب اتفاق اموالا طائلة من دون جدوى. ولما تحقق لمحمد واحمد ان مصيرهما غدا معلقاً على حكم سند في الموضوع لاذا به متوسلين اليه ان يعفو عنهما وينقذهما من الموت ، فاشترط سند قبل النظر في الأمر ارجاع مكتبة الكندي الى كند فأجيب الى هذا الطلب

في الحال ، ثم دبر سند خطة ينقذ بها محمد واحمد من المصير المحتم بعد أن ثبت لديه خطأهما وهي ان يخبر المتوكل بأنه لم يقع أي خطأ في حفر النهر لأن الخطأ لا ينكشف إلا بعد هبوط مستوى ماء نهر دجلة في الصيف ، ولما كان الموسم موسم فيضان فقدر المدة التي يسحب فيها النهر المياه من دجلة اربعة اشهر ؛ اما بعد ذلك فلا بد من ظهور الخطأ بانقطاع المياه عن النهر ، فاذا بقي المتوكل في قيد الحياة اوقع بثلاثتهم وان صدق المنجمون بأنه لم يدم الى هذ الحد افلتوا ثلاثتهم من العقاب . وهكذا فعل سند فخبر المتوكل انه لم يكن هناك خطأ في حفر النهر بدليل جريان المياه فيه ، وكان ان قتل المتوكل بعد شهرين فهجرت المتوكلية ومعها النهر فنجوا من العقاب .

ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن فشل هذا المشروع قد أدى الى نتائج خطيرة بالنسبة الى مركز الامبراطورية العباسية في ذلك العهد ، ولعله كان من أقوى الأسباب التي حملت المنتصر على ترك مدينة المتوكلية بعد مقتل المتوكل والرجوع الى سامراء ، الأمر الذي أدى اخيراً الى نقل العاصمة الى بغداد . وقد يكون هناك مجال للافتراض ايضاً بأن لمقتل المتوكل بعض الصلة بقضية فشل هـذا المشروع الذي كان يحتم اعدام محمد واحمد وسند إذا ما بقي المتوكل في قيد الحياة بعد انتهاء موسم الفيضان.

ب ـ نص رواية ابن أبي صبيعة

ونظراً لما لرواية ابن أبي صيبعة هذه من اهمية تاريخية فيما يختص

بمصير مشروع النهر الجعفري ونتائجه الخطيرة ارتأينا ضرورة نقلها بكامل نصها لكي يتسنى للقارئ ان يقف على تفاصيلها كما جاءت في النص الأصلي ، وهذه هي :—

« قال ابو جعفر احمد بن يوسف بن ابراهيم في كتاب حسن العقبى حدثني ابو كامل شجاع بن أسلم الحاسب قال كان محمد واحمد ابنا موسى بن شاكر في ايام المتوكل يكيدان كل من ذكر بالتقدم في معرفة فأشخصا سند بن علي الى مدينة السلام وباعداه عن المتوكل ودبرا على الكندي حتى ضربه المتوكل ووجها الى داره فاخذا كتبه بأسرها وافرداها في خزانة سميت الكندية ومكن هذا لهما استهتار المتوكل بالآلات المتحركة وتقدم اليهما في حفر النهر المعروف بالجعفري فأسندا أمره الى احمد بن كثير الفرغاني الذي عمل المقياس الجديد بمصر وكانت معرفته أوفى من توفيقه لأنه ما تم له عمل قط فغلط في فوهة النهر المعروف بالجعفري وجعلها اخفض من سائره فصار ما يغمر الفوهة لا يغمر سائر النهر فدافع محمد واحمد ابنا موسى في أمره واقتضاهما المتوكل فسعي بهما اليه فيه فانفذ مستحثاً في احضار سند بن علي من مدينة السلام فوافى فلما تحقق محمد واحمد ابنا موسى ان سند بن علي قد شخص أيقنا بالهلكة ويئسا من الحياة فدعا المتوكل بسند وقال له ما ترك هذان الرديان شيئاً من سوء القول إلا وقد ذكراك عندي به وقد اتلفا جملة من مالي في هـذا النهر فاخرج اليه حتى تتأمله وتخبرني بالغلط فيه فاني قد آليت على نفسي ان كان الأمر على ما وصف لي

اني اصلبهما على شاطئه وكل هذا بعين محمد واحمد ابني موسى وسمعهما فخرج وهما معه فقال محمد بن موسى لسند يا أبا الطيب أن قدرة الحر تذهب حفيظته وقد فرغنا اليك في أنفسنا التي هي أنفس اعلاقنا وما ننكر انا أسأنا والاعتراف يهدم الاقتراف فتخلصنا كيف شئت قال والله انكما لتعلمان ما بيني وبين الكندي من العداوة والمباعدة ولكن الحق أولى ما اتبع أكان من الجميل ما أتيتماه اليه من أخذ كتبه والله لا ذكرتكما بصالحة حتى تردا عليه كتبه فتقدم محمد بن موسى في حمل الكتب اليه وأخذ خطه باستيفائها فوردت رقعة الكندي بتسلمها عن آخرها فقال قد وجب لكما عليّ ذمام برد كتب هذا الرجل ولكما ذمام بالمعرفة التي لم ترعياها فيّ والخطأ في هذا النهر يستتر أربعة أشهر بزيادة دجلة وقد أجمع الحساب على ان امير المؤمنين لا يبلغ هذا المدى وانا أخبره الساعة انه لم يقع منكما خطأ في هذا النهر ابقاء على ارواحكما فان صدق المنجمون أفلتنا الثلاثة وان كذبوا وجازت مدته حتى تنقص دجلة وتنضب أوقع بنا ثلاثتنا فشكر محمد واحمد هذا القول منه واسترقهما به ودخل على المتوكل فقال له ما غلطا وزادت دجلة وجرى الماء في النهر فاستتر حاله وقتل المتوكل بعد شهرين وسلم محمد واحمد بعد شدة الخوف مما توقعا »(١) .

---

(١) راجع كتاب « عيون الانباء في طبقات الاطباء » تأليف ابن أبي صيبعة ، الجزء الأول ، طبعة المطبعة الوهبية سنة ١٨٨٢ الميلادية ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

استنتاجاتنا من رواية ابن أبي صيبعة

ونستخلص من رواية ابن أبي صيبعة الأمور المهمة التاليـة :—
ان النهر تم حفره وجرت المياه فيه لمدة شهرين وكان ذلك في موسم الفيضان قبيل مقتل المتوكل مباشرة . ولما كان قد وقع مقتل المتوكل في ٣ شوال ٢٤٧ هـ . فتكون مياه الفيضان قد جرت في النهر خلال شهري شعبان ورمضان من سنة ٢٤٧ هـ . هذا ولما كان قد بوشر بحفر النهر في شهر ذي الحجة من سنة ٢٤٥ هـ . وجرت المياه فيه في أوائل شعبان من سنة ٢٤٧ هـ . كما تقدم فتكون المدة التي استغرقها العمل على حفر النهر تسعة عشر شهراً .

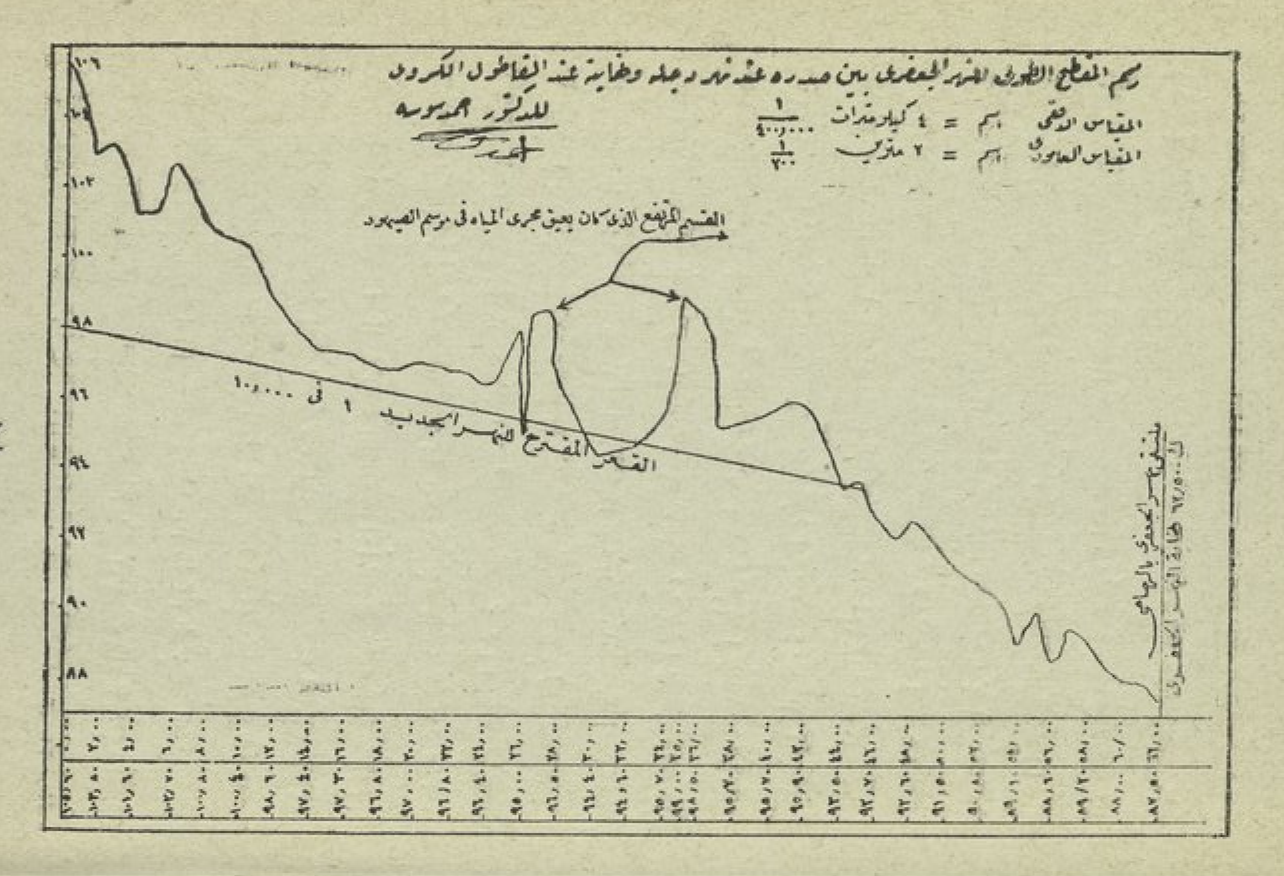
وهناك ما يؤيد لنا صحة ما جاء في وصف ابن أبي صيبعة من أن النهر تم حفره وجرت فيه مياه الفيضان بدليل ان بركة قصر الجعفري الذي ينتهي النهر الجعفري عندها قد تراكمت فيها ترسبات الدجلة الى عمق متر ونصف متر تقريباً كما اتضح لنا من الحفريات التي اجريناها للوقوف على المنسوب الأصلي لقعر البركة . ويستغل الزراع القاطنون في هـذه المنطقة خصوبة هذه الترسبات في الوقت الحاضر وذلك بزراعة حوض البركة الذي تقع فيه هذه الترسبات ، والغريب ان هؤلاء الزراع يعتقدون بأن الأتربة الغرينية هذه قد نقلت من حوض نهر دجلة الى هذا المكان في الزمن القديم لانشاء حديقة فيه ، أما حقيقة كون هـذه الترسبات قد تراكمت في هذا

المكان بنتيجة وصول مياه نهر دجلة المشحونة بطمي الفيضان وذلك بطريق النهر الجعفري الذي يأخذ من نهر دجلة وينتهي هناك فلم تخطر على بالهم .

وتدل نتائج تدقيقاتنا لمناسيب قعر النهر الحالية على أن الوصف الذي جاء في كتاب ابن أبي صيبعة يتفق تماماً مع هذه المناسيب وهو الوصف القائل بأن « فوهة النهر جعلت اخفض من سائره فصار ما يغمر الفوهة لا يغمر سائر النهر » . وإذا القينا نظرة عامة الى المقطع الطولي للنهر بين صدره عند نهر دجلة ونهايته عند القاطول الكسروي (راجع رسم المقطع الطولي للنهر الجعفري بين صدره عند نهر دجلة ونهايته عند القاطول الكسروي) نجد أن النهر يسير مسافة أربعة وعشرين كيلومتراً من الصدر بانحدار طبيعي معتدل حيث يبلغ معدل انحدار القعر في هذه المسافة حوالي واحد في الستة آلاف ، وذلك على اعتبار أن قعر النهر في الصدر كان حوالي(١٠١)متراً [١] فوق سطح البحر ومنسوب القعر في نهاية مسافة الـ ٢٤ كيلومتراً المذكورة ٩٦ متراً ، ثم يرتفع منسوب القعر بصورة غير اعتيادية حتى يبلغ حده الأعلى عند الكيلومتر (٢٧٫٥٠٠) من الصدر فيبلغ هنا ٩٨٫٥٠ متراً ، أي انه يرتفع مترين ونصف المتر عن منسوب القعر المجاور ، ويستمر فيما يقرب من هذا الارتفاع مسافة ثلاثة كيلومترات تقريباً ثم يهبط الى المنسوب الاعتيادي وهو يتراوح بين الـ ٩٤ والـ ٩٥ متراً . وبعد ان ينحدر قعر النهر بصورة اعتيادية في حوالي هذا الارتفاع مسافة حوالي ستة كيلومترات يعود فيرتفع حتى يبلغ حد الاعلى عند الكيلومتر (٣٥)

---

(١) حول مناسيب القعر في صدر النهر راجع البحث الذي تقدم في صفحة ٤٥ .


رسم المقطع الطولي لنهر الجعفري بين صدره عند نهر دجلة ونهايته عند القاطول الكرود
للدكتور احمد سوسه
المقياس الافقي ١سم = ٤ كيلومترات ١/٤٠٠٠٠٠
المقياس العامودي ١سم = ٢ مترين ١/٢٠٠
القسم المرتفع الاكسمان يعيق مجرى المياه في موسم الصيهود
قعر المفتتح للنهر الجديد ١ في ١٠٠٠٠
ملتقى نهر الجعفري بالرصاصي
ك ٦٢/٥٠٠ نهاية النهر الجعفري

من الصدر فيبلغ في هذا المكان ٩٩ متراً ، اي انه يرتفع مايقرب من خمسة امتار عن منسوب القعر المجاور فيستمر في حوالي هـذا الارتفاع مسافة كيلومترين تقريباً ثم يعود فيهبط الى منسوبه الاعتيادي وهو حوالي ٩٥ الى ٩٦ متراً . ومن هنا ينحدر النهر بصورة اعتيادية حتى يصل الى القاطول الكسروي فيعبره بمنسوب ٨٦ متراً في القعر . ولما كان تقديرنا لمنسوب القعر في الصدر (١٠١) متراً فوق سطح البحر ومستوى مياه دجلة الصيفية (١٠٣) امتار فلم يبق تسلط كاف للمياه الصيفية لاجتياز هذه العقبة التي في قعر النهر والتي تكاد تساوي قعر منسوب الصدر ، زد على ذلك ان العقبة تقع على بعد ٣٥ كيلومتراً من الصدر مما يتطلب ارتفاع اربعة امتار على اقل تقدير لتأمين الانحدار الكافي بين الصدر والعقبة .

ونلاحظ حين ندقق مناسيب نهر دجلة ومستويات الاراضي ان هناك هبوطاً كبيراً بين منسوب مياه نهر دجلة الصيفي في ذلك الوقت وبين مستوى اراضي المتوكلية مما يضمن نجاح المشروع من حيث تأمين ايصال المياه الى المتوكلية سيحاً في اوطأ حالات نهر دجلة في موسم الصيهود ، إذ تدل المناسيب على ان الهبوط المذكور يبلغ حوالي ١٧ متراً ، وهذا ضعف ما هو مطلوب لانحدار الجدول في مسافة الـ ٦٥ كيلومتراً التي بين صدره والمتوكلية . لذلك فان سبب فشل المشروع كما يتضح لنا مما تقدم يرجع الى الخطأ الذي ارتكب في تعيين مناسيب الحفريات عند الكيلومتر (٢٧٫٥٠٠) والكيلومتر (٣٥) من صدر النهر خصوصاً في المكان الاخير الذي يرتفع فيه القعر حوالي اربعة امتار عن المنسوب المطلوب .

وهذا يفسر لنا كيف اقتصر جريان المياه الصيفية الواطئة على القسم الواقع بين صدر النهر والكيلومتر (٢٧٫٥٠٠) او بين الصدر والكيلومتر (٣٥) حيث صارت تقف عند المكان الذي يرتفع فيه منسوب القعر ولا تجتازه الا اذا ارتفع منسوب مياه دجلة فتجري حينئذ من فوق هذا القسم المرتفع ولايتم ذلك الا في موسم الفيضان . وينطبق ذلك على ماجاء في رواية ابن ابي صيبعة وهو ان « الفرغاني غلط في فوهة النهر فجعلها اخفض من سائره فصار مايغمر الفوهة لايغمر سائر النهر » كما يتفق مع ماورد في اليعقوبي من ان النهر لم يكن له « اتصال ولا استقامة » ، اي انه لم يسر في انحدار متناسق حيث تختلف مناسيب قعره فتارة ترتفع وتارة تهبط بدون اي اتصال او استقامة في المجرى .

وقد يتساءل القارىء كيف اختفيت هذه الفروق في منسوب قعر النهر عن ملاحظة الفرغاني الذي قام بهندسة النهر وهي واضحة جلية في امكان حتى المرء غير الفني ملاحظتها سيما وان الارتفاع يبلغ حوالي خمسة امتار فوق المنسوب المطلوب ويكاد يكون هذا الارتفاع فجائياً من دون ان يتدرج في مسافة طويلة . والجواب على ذلك هو أن العمل على حفر النهر كان جارياً في وقت واحد وذلك بعد تقسيم المجرى الى عدة اقسام كل قسم يقوم به عدد من العمال بنسبة كمية الحفريات . ويظهر ان الارتباك في تعيين المناسيب من قبل المهندس المختص في كل من هذه الأقسام أدى الى حدوث هذه الفروق عند اتصال الأقسام بعضها ببعض .

كل هذا يدلنا على أنه لم يكن الفرغاني ورفيقاه محمد وأحمد حائزين على الخبرة الفنية الكافية لانجاز مثل هذا المشروع الجسيم الأمر الذي أدى الى فشله واخفاق المتوكل في تحقيق أمنيته . ولا يخفى أن القيام بمثل هذه المشاريع في ذلك الزمن كان يتطلب مهارة فائقة وخبرة شخصية واستعداداً عبقرياً وذلك لانعدام الآلات الفنية الدقيقة التي تمكن الخبراء من احضار خرائط وتصاميم للمشروع مقدماً ثم تنفيذ هذه التصاميم بعد تدقيقها والتأكد من صحتها .

ولابد من الاشارة في هذا الصدد الى أن المجهود الذي بذل في محاولة انجاز هذا المشروع كان عظيما جداً . أما كمية الحفريات التي انجزت فعلا فقد كانت بدون شك كبيرة بحيث لا تقل عن ستة ملايين متر مكعب على الرغم من أن قسما من هذه الحفريات كان منجزاً من قبل في المجرى القديم الذي كان موجوداً قبل مشروع المتوكل الذي ينطوي على إعادة إحياء النهر القديم . ومما يدل على صعوبة العمل أن معظم الأراضي التي يمر فيها الجدول متكونة من طبقة صخرية من النوع المعروف جيولوجياً باسم (Conglomerate) وهذه مكونة من حصاة مختلفة الأبعاد وملتحمة عادة لاصقة ويصعب الحفر فيها ، وقد أيد اليعقوبي ذلك فذكر أن حفريات الجدول كانت صعبة للغاية حيث « كانوا يحفرون حصاً وافهاراً لا تعمل فيها المعاول » .

٢٢ـ امكانيات المشروع ومقترحات حول اعادة احيائه

ذكرنا في مقدمة الكتاب أننا أفردنا كتيباً خاصاً بعنوان « إحياء النهر الجعفري » يبحث في امكانيات النهر من حيث إعادة إحيائه واستغلاله لارواء أراضي سامراء سيحاً ، وقد يكون من المفيد أن نختم بحثنا هذا بخلاصة عن هذه الامكانيات . لقد دلت تحرياتنا على أنه في الامكان إعادة إحياء النهر الجعفري والاستفادة من حفرياته القديمة التي تقدر بأكثر من سبعة ملايين متر مكعب من الأعمال الترابية ، وذلك باجراء الحفريات الاضافية اللازمة في حوض النهر القديم ، وتقدر كلفة هذه الحفريات القديمة بأكثر من مليون دينار على أساس الأسعار الحالية . وتدل المناسيب الطبيعية في نهر دجلة على أنه يمكن سحب المياه من نهر دجلة الى الجدول المذكور في اوطأ حالات النهر في موسم الصيهود من دون حاجة الى انشاء قناطر على نهر دجلة لحجز المياه أمام الصدر ورفع مستواها .

وتبلغ مساحة الأراضي التي يمكن ارواءها سيحاً من المشروع الجديد المقترح حوالي اربعمائة الف دونم (مشارة) وهي الأراضي المعروفة بحويجة سامراء والواقعة بين نهر دجلة وبحيرة الشارع ، وهذه تبدأ من قرب صدر فرع الحديد جنوب تكريت وتنتهي عند وادي السدة جنوب سامراء . ويبلغ طول هذه المنطقة حوالي ٥٥ كيلومتراً كما يبلغ معدل عرضها حوالي ٢٢ كيلومتراً أي أن مساحتها تبلغ حوالي نصف مليون مشارة ،

يضاف اليها الحويان التي على نهر دجلة [1] والبالغة مساحتها حوالي ٥٠٫٠٠٠ مشارة . واذا استخرجنا من هذه المساحة الأراضي الغير قابلة للزراعة والتي تقدر بحوالي ١٥٠٫٠٠٠ مشارة فتكون المساحة الممكن ارواءها سيحاً من المشروع المقترح حوالي ٤٠٠٫٠٠٠ مشارة .

وتقدر كلفة إحياء ١٦٠٫٠٠٠ مشارة من هذه الأراضي على أساس اروائها رياً سيحياً مستديماً بـ ٢٠٠٫٠٠٠ دينار على أن يوضع تصميم الجدول بعرض عشرة امتار وعمق ١٫٧٥ متراً لسحب كمية عشرة امتار مكعبة في الثانية من التصريف في موسم شحة المياه . ويمكن سحب ثلاثة أضعاف هذا التصريف في موسم الفيضان نظراً لارتفاع حافتي الجدول مما يساعد على امرار المياه فيه بعمق اكبر ، وبذا يمكن توسيع الزراعة الشتوية في المشروع وابلاغها الى حد تشمل به كل مساحة الـ ٤٠٠٫٠٠٠ مشارة القابلة للزراعة في حويجة سامراء وذلك من دون كلفة إضافية في الحفريات على شرط ان ينشأ الناظم في صدر الجدول بسعة تستوعب التصريف الاضافي .

---

(١) راجع البحث الذي تقدم في صفحة ٥٠ .

الفهرست



خارطة تبين تخطيط النهر الجعفري
المعروف باسم نهر نايفة من صدره قرب نهر دجلة الى ذنائبه في المتوكلية مع مناسيبه وفروعه والمواقع
الاثرية عليه
للدكتور احمد سوسه
المقياس
كيلومتر
الشمال
نهر دجلة
سكة حديد بغداد - الموصل
تكريت
حاوي تكريت
حاوي رأس السوق
حاوي البوعجيل
عشائر البوعجيل
ملاحظة: يظهر ان هذه الساحة خصصها المتوكل لانشاء حلبة سباق فيها



